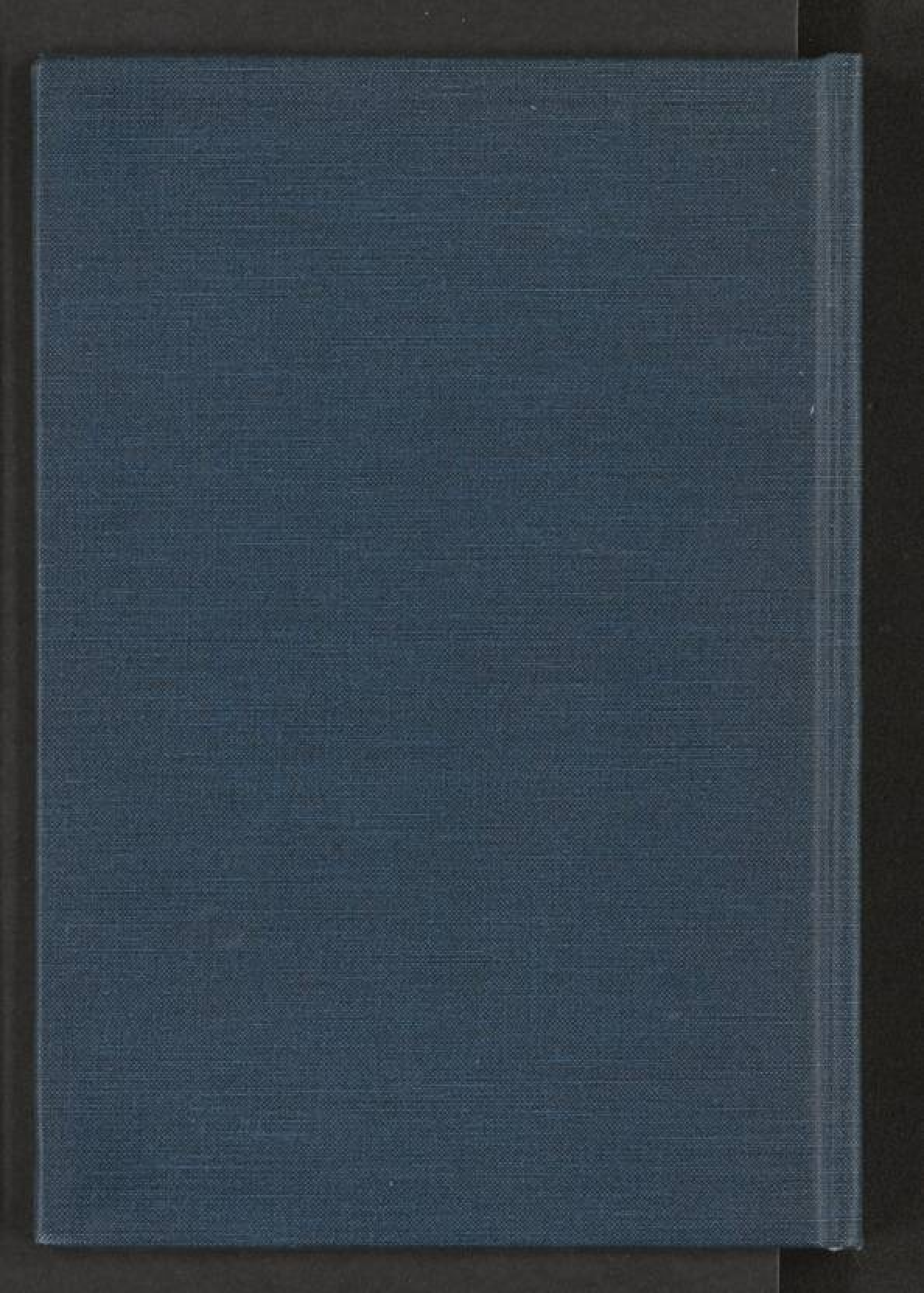
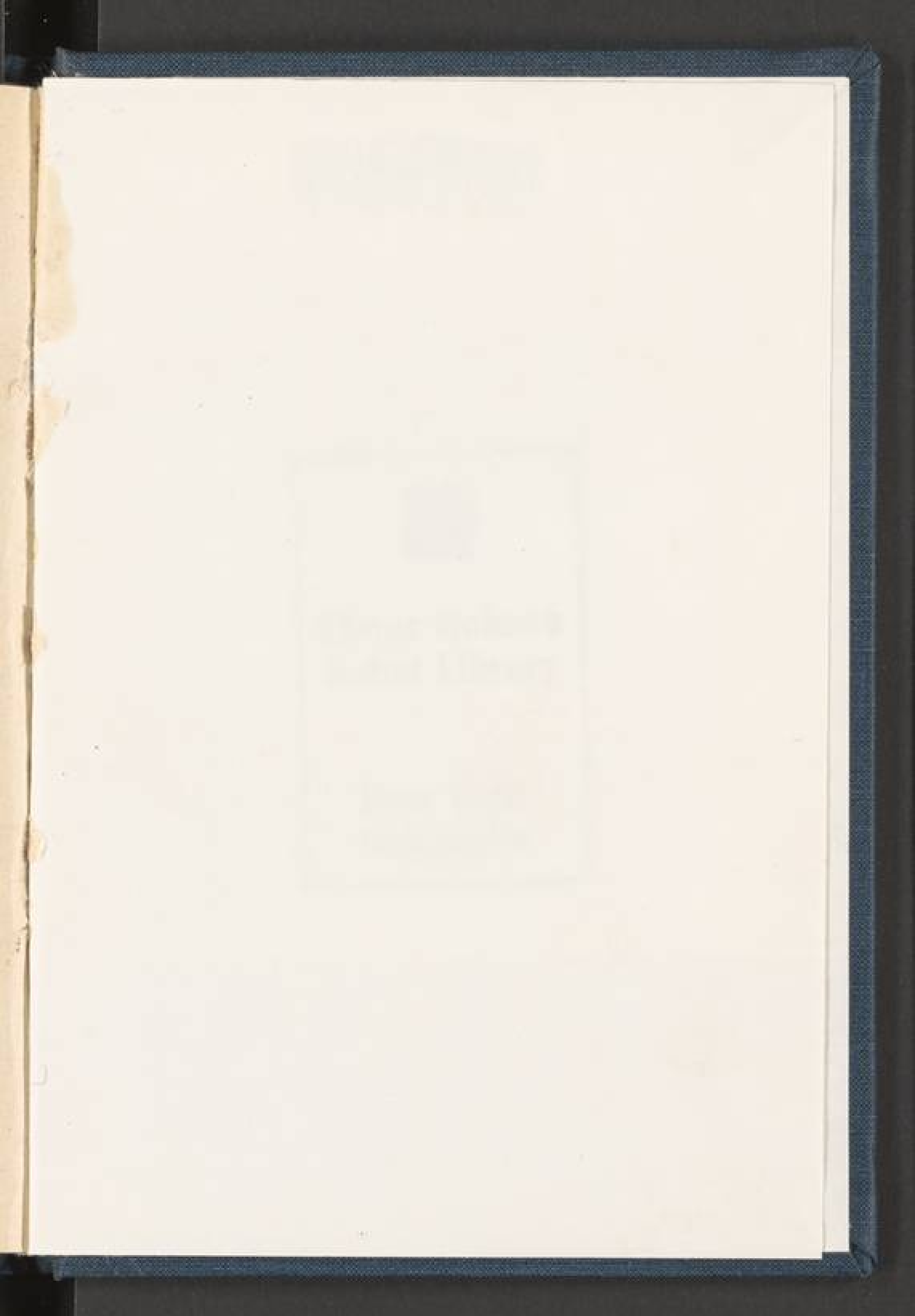
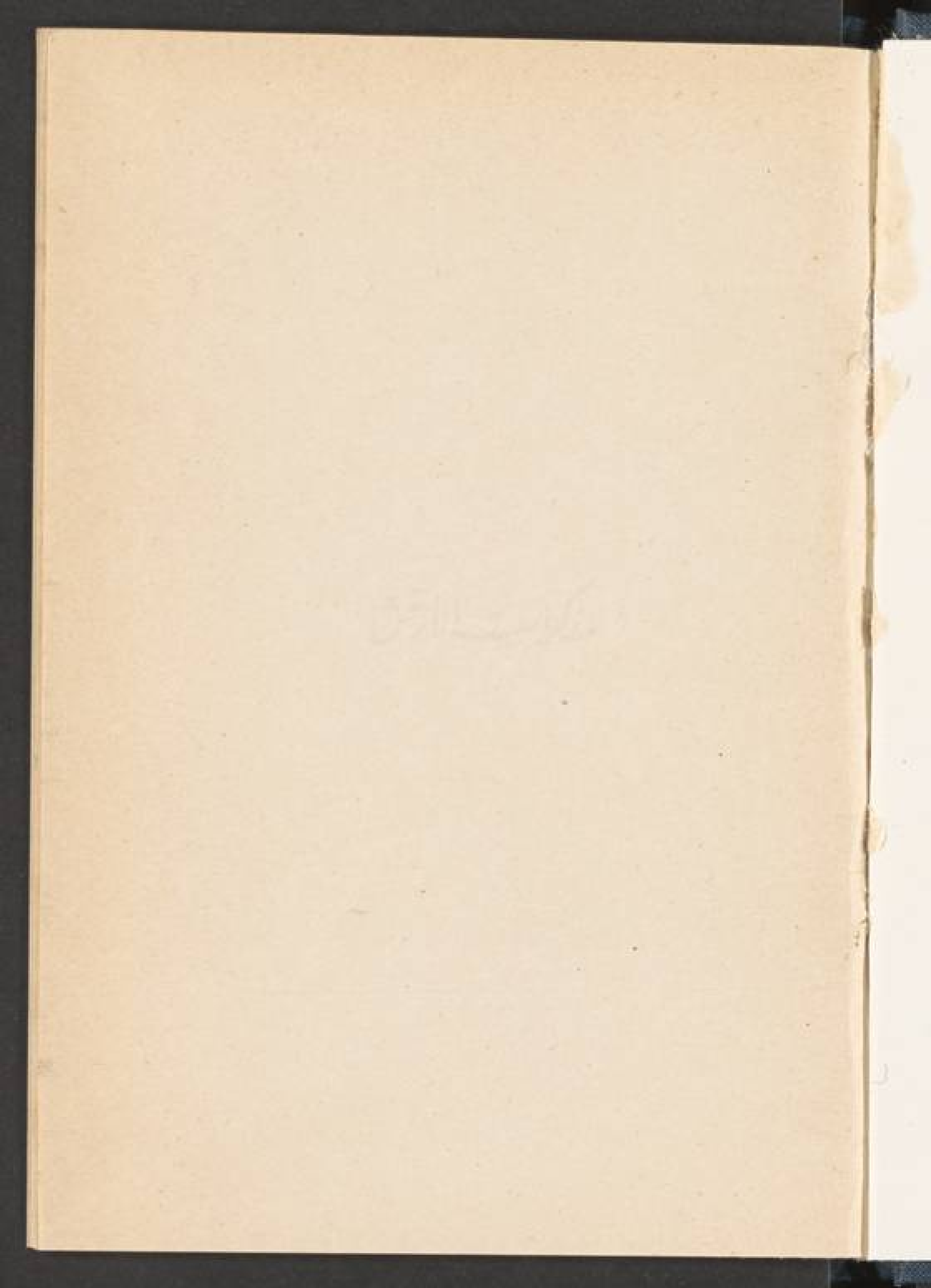


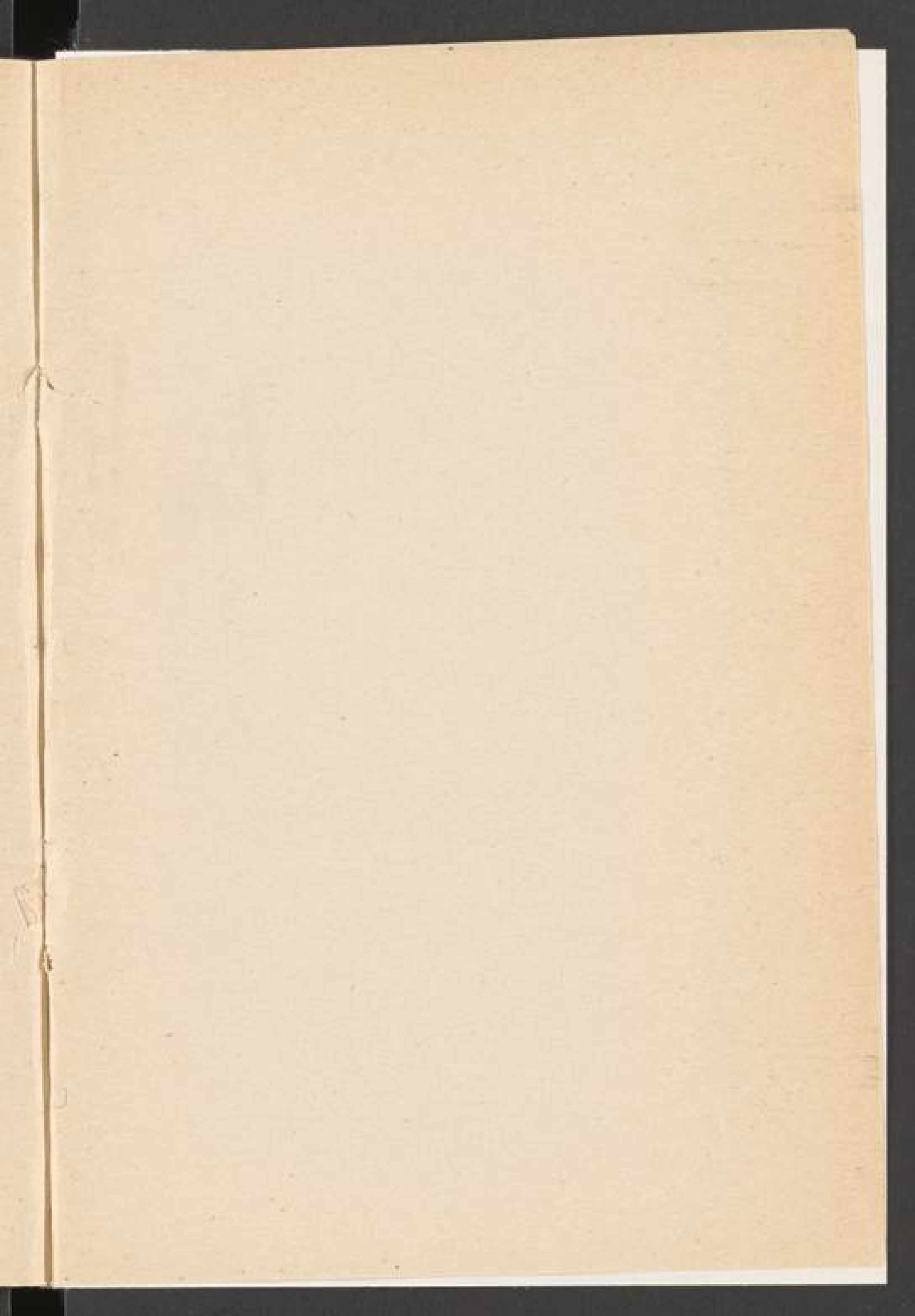




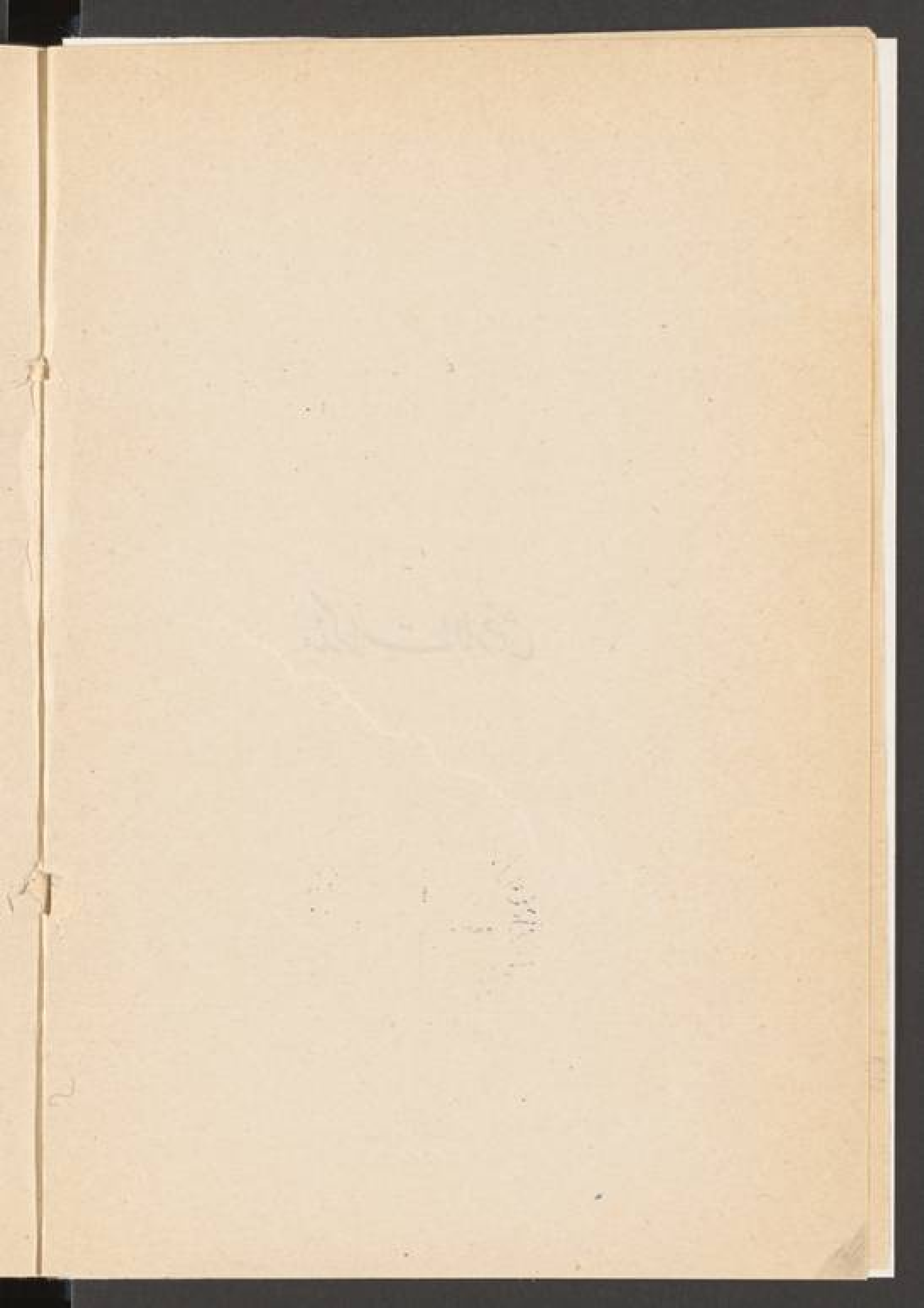








مذكرات الارقش



ميخائيل نعيمه

مذكرات الأرقش



مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل : ٣ — ٩ — ٤٩

توطئة

مَن هو الأرقش ؟

لجأت مرةً وصديقاً لي الى مقهى عربي في نيويورك لنحتمي فيه من المطر . ولم تكُ أقدامنا وطئت ارض ذلك المكان من قبل . فوجدناه خالياً من الزبائن . وجلسنا بعد ان طلبنا من صاحبه قهوة نتسلى بها ريثما تحقن السماء قِربَها أو يخفّ المطر قليلاً . وما هي الا هنيهة حتى جاءنا صاحب المقهى بفنجانين من القهوة العربية . ومما لفت نظرنا انه كان يمشي متمايلاً ذات اليمين وذات اليسار كالسكران ، او كمَن يمشي على شظايا من الزجاج برجلين عاريتين . فلم يضع القهوة أمامنا حتى ارتمى على كرسيّ بجانبنا وقال متنهّداً :

« واحسرتاه عليك يا أرقش !.. »

وعندما رأى علامة الاستفهام على وجهينا تنهّد ثانية وتابع كلامه :

« أهلكني هذا الروماتزم . أهلكني ولم يترك لي حالاً . لما

كان الأرقش عنـدي ما كنت اهتم بشيء . كنت اجلس على كرسيّ ادخن نارجيلتي وأقبض فلوساً لا غـير . اما اليوم فأصبحت مضطرًا ان أخدم الزبائن بنفسي ، وان أروح وآتي... ألا تعرفان الأرقش ؟..»

وقبل ان يسمع منا جواباً تنهّد ثالثة وقال متابعاً حديثه :

«خدم عندي ثلاث سنوات . ثلاث سنوات بكاملها . أتاني في نهار مثل هذا النهار ، نصف عريان ، ولا ما يغطي رأسه ، والمطر ينساب سواقي من كل خيط على بدنـه . قلت : ماذا تريد يا بنيّ ؟ قال : أتقبلني عندك خادماً ؟ فقلت في نفسي : انها حسنة لوجه الله . وانا في حاجة الى خادم ، فليخدم لنرى خيره من شرّه . قلت : أتخـدم لقاء مؤونتك لا غـير ؟ فهزّ رأسه بالقبول . حينئذٍ أخذته وأدفأته وأطعمته وجففت ثيابه وبـدأ يشتغل . ومـا هو الاّ يوم او يومان حتى أصبح يعرف عن الشغل قدر ما أعرف مرتين . بعد شهرين جعلت له مرتّباً شهريّاً قدره عشرة ريالات مع أكله وشربه . وبعد سنة رحت أعطيه خمسة عشر ريالاً . وقبل ان تركني بشهر زدت له خمسة ريالات اخرى . اما هو فمسكين . لم يطلب زيادة من تلقاء نفسه ولا مرّة . ولا سمعته مرة يتذمّر من شيء . بل كان أبـداً قانعاً يشتغل من كل قلبه . اوّاه واحسرتاه عليك يا أرقش !»

وسكت محدثنا . وكأني لمحت بريق دموع في عينيه . فسألته عن اسم الخادم وأوصافه الخارجية علّني اهتدي اليه ولو مصادفة . فهزّ رأسه يميناً ويساراً وأجاب :

«لو كنت اعرف اسمه وأصله وفصله لما كان قلبي حزيناً . هو قصير . نحيف البنية للغاية . شعره اسود طويل . عيناه سوداوان كبيرتان غارقتان تحت حاجبيه . وجهه مشوّه بالجدري. لذاك لقبناه بالأرقش . نسأله عن اسمه فيجيب – لا أعرف . اسم أبيك – لا أعرف . من اين انت وكم لك من العمر – لا أعرف . اغرب منه بين الناس لا رأت عيني ولا يمكن ان ترى . مجنون ؟ كلا . ما هو بالمجنون . يكتب ويقرأ العربية والانكليزية والاسبانيولية والفرنسية ، والله يعرف ماذا بعد. انما لا تقدر ان تجعله يفتح فمه ولا بألف حيلة . يروح ويجيء ساكتاً . تطلب منه غرضاً فيأتيك به كالبرق ، ولكن ساكتاً .

«خدم عندي ثلاث سنوات . فما كان يكلمني او يكلم الناس الاّ نادراً بأكثر من «نعم» و«لا» . وحين لا يكون عندنا زبائن كان يجلس وحده على كرسيّ ويسند رأسه بيديه ويأخذ يحملق في الأرض امامه ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات ، وهو لا يكاد يتحرك كأنه مسمّر في مكانه ، او كأنّ عينيه من زجاج . لا ، لا . اغرب من هذا الرجل ما رأيت ولن أرى .

لا يأكل لحماً ولا سمكاً . بقي عندي سنتين وما كان يخرج من المحل الا قليلا . اما في المدة الأخيرة فقد اخذ يروح ويجيء . »

عندها بلغت الدهشة مني ومن صديقي منتهاها . وراح يتأكلنا الشوق الى معرفة اكثر مما عرفناه عن ذلك الرجل الغريب . فسألنا محدثنا ان يطلعنا على عنوان البيت الذي كان يسكنه خادمه . فنهض للحال وقادنا الى وراء حاجز من الخشب في مؤخر المقهى . وهناك أنار قنديلاً من الغاز قائلاً :

« هنا كان يسكن . وهنا كان يقضي لياليه . »

تأملنا المكان حوالينا فاذا به مزدحم بصناديق من الخشب وعلب من القهوة مبعثرة هنا وهناك وزجاجات مرطبات ومشروبات روحية ، خلا زاوية رأينا فيها لوحين من الخشب ممدودين فوق صندوقين وعليهما ملاءة من القصور ولحاف من الصوف ووسادة . وبجانبهما صندوقان — الواحد فوق الآخر — مغطيان بجرائد عربية فوقها زجاجة من الحبر ، وبجانب الزجاجة قلم . وفي زاوية أخرى مغسلة ومستودع للفناجين والصواني والكؤوس وموقد غاز لاعداد القهوة . فتضاعفت دهشتنا لما رأيناه . وسألنا صاحب المقهى متى ذهب خادمه ولم يرجع . فأجاب ان قد مرّ اكثر من اسبوعين على غيابه . واذ حاولنا

ان نعزّيه بقولنا ان خادمه قد يعود قريباً ، هزّ رأسه طويلاً وتنهّد عميقاً وقال :

«مات الأرقش ، مات . لو كان لا يزال حياً لرجع قبل الآن . واحسرتاه عليك يا أرقش !»

وقفت وصديقي حائرين مبهوتين . وكان المطر قد انقطع . فهممنا بالخروج . ولكن خطر لي وانا في الباب ان اسأل صاحب المقهى عما اذا كان الأرقش لم يترك بعده أثراً او شيئاً من حطام الدنيا . ففكر قليلاً ، وحك رأسه على مهل ، ثم انطلق متأوّهاً الى ما وراء الحاجز الخشبي وعاد بصندوقة صغيرة قائلاً:

«هذا كلّ ما تركه .»

وقبل ان نسأله أمراً فتح الصندوقة فاذا فيها كتاب العهد الجديد ودفتر بسيط . فتناولت الدفتر واذا بي أقرأ على غلافه كلمة «مذكراتي» مكتوبة بأحرف كبيرة ، وأجد فيه عدداً مطويّاً من جريدة اجنبية . وقبل ان اهتم بمعرفة ما تحتويه تلك المذكرات سألت صاحب المقهى اذا كان يرضى ان يبيعني الدفتر . وكنت مستعداً ان أدفع له مهما طلب مني . لكنه رفع اليّ نظره بدهشة شديدة وقال :

«أبيعه ؟! — وهل هو من الجواهر كي أبيعه ؟ ان هو الا

دفتر بسيط . بارك الله لك فيه . فصاحبه – واحسرتاه عليه ! – راح ولن يعود . اما انا فلا كتابة ولا قراءة . بارك الله لك فيه يا أفندي . فقط اذكرونا من حين الى حين . وتفضّلوا شرفونا . أهلاً وسهلاً بكم . المحل محلكم . اجعلوها عودة . »

فوعدناه خيراً وانصرفنا ، وانا لا اكاد اتصبّر حتى ابلغ بيتي لأطالع مذكرات الأرقش .

اما الآن وقد تلوتها بدل المرة مرات ، وقد انقضى على غياب صاحبها رَدَحٌ من الدهر ، فلست أرى بأساً من نشرها لعلّ بعض القراء يجد فيها مثل ما وجدته من المتعة والسلوى .

واما طريقة الأرقش في تدوين مذكراته بذكره ايام الاسبوع لا غير دون تاريخ اليوم والشهر والسنة فلا يمكنني الاعتراض عليها وان لم أفهم الغاية منها .

هذا كل ما اعرفه عن الأرقش . فلا تسألوني زيادة .

م . ن.

مذكرات الارقش

الاثنين

الناس قسمان : متكلمون وساكتون .

انا قسم الانسانيـة الساكت . وما بقي فمتكلمون . أمـا البُكم والرضّع فلغاية ختمت الحكمة الأزلية على افواههم فلا يتكلمون . في حين اني ختمتُ على فمي بيدي . وقد ادركت حلاوة السكوت ولم يدرك المتكلمون مرارة الكلام .

لذاك سكتُّ والناس يتكلمون .

الأربعاء

انا ناسك بين الناس . والتنسك بين النـاس اين من هوله التنسك بين الوحوش . فانت تستطيع ان تأمن جانب الوحش وان تكسب ألفته باللين والمحبة . وإن اخفقت وغضب الوحش عليك فهو لا يمزّق منك غير جسدك . امـا الناس فيحسبون اللين والمحبة منك ضعفاً ، ويتحاشون الحاق اقل ضرر بجسدك

الفاني خوفاً من قوانين سنّوها . في حين يستحلّون جعل روحك الأبديّ مشاعاً للشارد والوارد ، ولا قانون يصدّهم ولا محكمة . لذاك تركت جسدي مشاعاً لألسنتهم وسيّجتُ روحي بالسكوت .

رأوا آثار الجدري في وجهي فلقّبوني بالأرفش . اما روحي الملتفُّ بالسكوت ، البعيد عن ابصارهم الكفيفة ، فلم يجدوا له اسماً . لذاك يحسبونني مختلّ الشعور . ولكنني من وراء سكوتي استطيع ان ابصر ما في قلوبهم واقرأ ما في افكارهم ، لأنني احكم على افكارهم لا بما ينطقون بل بما لا ينطقون .

لذاك سكتّ والناس يتكلمون .

الخميس

« ما ذاك فكري »

لكَم يؤلمني كلما سمعت احداً يتكلم باجتهاد وحدّة واخلاص ثم يعود فيقول لسامعه او سامعيه : « ما ذاك فكري . »

ولو أحيل الأمر اليّ لوضعتُ في آخر كل كتاب سطّرته يد بشرية ، ونقشتُ على كل تمثال نحته مثّال ، وصورة مدّ خطوطها مصوّر ، وخطاب فاه به خطيب ، وقصيدة نظمها

شاعر، ومقال حبّره كاتب، وعبارة نطق بها ناطق، هذه الكلمات الثلاث: «ما ذاك فكري.» ولماذا؟ لأن بيان الناس من أي نوع كان، ومهما بلغ من الدقة والرقة، ما يزال اضيق من ان يتسع لجميع مشاعرهم وافكارهم. فهم أطفال يلثغون. وانا وان كنت اكتب هذه المذكرات لنفسي لا للناس، سأضع في آخرها: «ما ذاك فكري.»

الصدق بالنيّات لا بالبيان. والنيّات يحجبها البيان. لذلك كان الناس في عذاب مستمرّ وقد اختلط عليهم صادقهم وكاذبهم. اما انا – قسم الانسانية الساكت – فكيف أكذب؟ انما تكذب النية الصالحة ببيانها الفاسد، وتكذب النية الفاسدة ببيانها الذي يقلد الصدق.

الكلام مزيج من الصدق والكذب. اما السكوت فصدق لا غش فيه.

لذاك سكتّ والناس يتكلمون.

الجمعة

من صدّق الكذوب فقد اقتصّ منه.

انا انسان صغير مجهول . لي وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس . هكذا اظهر في عيون الناس ، وهذا كل ما يعرفه الناس عني . فلماذا لا يكتفون بذلك ؟ اذا نادوني « يا ارقش . هات ٥ قهوة ، أو هات ٣ وسكي يا أرقش ، او ورق بوكر يا أرقش » آتيهم بالقهوة والوسكي وورق البوكر . فما بالهم لا ينفكّون يسألونني عن اسمي واسم ابي وأمي وبلادي وعمري الخ الخ ؟ فهل اذا عرفوا ان اسمي يعقوب او زكريا او يوسف انقلبتُ في أعينهم فما بقيت انساناً مجهولاً ولا بقي وجهي رقعة من الخشب نخرها السوس ؟

انا لا اعرف لذاتي اسماً ولا ارضى ان أعرّف باسم واحد . لانني اولد ولادة جديدة كلما تولّد في رأسي فكر جديد . وافكاري تتولّد بسرعة البرق . ان اكن الآن داود فانا بعد طرفة عين سليمان . وبعد طرفة اخرى لست سليمان بل شمشون . فانا بما افكّر قبل ان اكون بما اعمل وبما يظهر مني . والفكر لا يستقرُّ على حال . فهو كالريح تهبُّ فوق المروج فتشمّ منها رائحة المروج . وعلى المزابل فتأتيك برائحة المزابل . وما دمتُ فكرًا متجسداً لا جسداً مفكراً فأنا في كل لحظة ، او

أقلّ منها ، انسان جديد . اما جسمي ، وان تغيّر ، فتغيّره بطيء . والخشبة التي نخرها السوس لا تعود صقيلة . لذلك أنا «أرقش» وسأبقى «أرقش» الى ان اخلع هذا الثوب وارتدي سواه . أو كما يقول الناس — الى ان اموت .

الناس في حاجة الى الاسماء ليدوّنوا تواريخهم السخيفة ، ويديروا محاكمهم وحكوماتهم الصغيرة ، وينظموا علاقاتهم بعضهم ببعض فيعرفوا ان هذا البيت لأحمد وذلك البستان لبولس ، فلا يجوز لي — انا الأرقش — ان اقتلع منه بصلة لأتبلّغ بها ، او ان الجأ الى زاوية من زوايا ذلك البيت حتى وان كانت العواصف تولول والثلوج تنهمر وانا في الشارع تصطك اسناني من البرد ولا ملجأ لي ولا مأوى .

ليت شعري ، ماذا يحلّ بالناس لو هم أفاقوا ذات صباح ونسي كلّ منهم اسمه واسماء غيره ؟ أما تنشلّ حياتهم بانشلال سجلاتهم ؟ فواحدهم يحيا باسمه ولاسمه لا للحياة وبما فيه من قوّة الحياة . وهو يشعر انك لو محوت اسمه من سجلّ الناس فكأنك محوته من سجلّ الحياة .

وهل يدرك الناس يوماً ان سجلاتهم ليست سوى كتابة على الماء ، وان لا سجلّ يدوم الا سجلّ الكون الرهيب حيث لا ينطلق صوت ، ولا تُذرف دمعة ، ولا تصعد زفرة ، ولا يولد

فكر ، ولا تُلفظ كلمة ، ولا تتحرك شهوة الا تنطبع على صفحاته الابدية ؟ هنالك لا اسماء ولا ألقاب ، ولا أنساب ، ولا رتب ، بل اعمال وافكار وعواطف لا غير . متشابهة ولكنها مختلفة ، ومتحدة ولكنها منفصلة . ومدوّنو السجلّ الأعظم يميزون بين هذه وتلك نظير ما يميز الاثريّ الماهر بين خطوط ابهامي وخطوط ابهام سواي .

أنا الآن في عرف «شين»[1] وزبائنه ارقش – لا اكثر ولا اقلّ : انسان صغير مجهول له وجه كخشبة نخرها السوس . لا نفع مني الا لتقديم القهوة والوسكي وورق اللعب وغسل الفناجين وكنس المحلّ . لكن لو قلت لهم غداً ان اسمي عبد الرحمن باشا البغدادي لانقلبت الآية فاصبحوا الخدم واصبحت السيد .

دع الناس يسجّلوا اسماء الناس . اما انا – قسم الانسانية الساكت – فقد رضيت بما تدوّنه الاقدار عني في سجلّ الكون العظيم .

لذاك سكتّ والناس يتكلمون .

---

[1] استخلصت مما يلي من المذكرات ان المقصود بـ «شين» هو صاحب المقهى . م. ن.

متى يزول عني هذا الرجفان ؟

جسمي كآلة حُلّت لوالبها . يداي ترتجفان . أسناني تصطك . لا أملك عضلاً من عضلاتي . مطارق في قلبي . ورئتاي منفخ حداد . القلم لا يثبت بين أصابعي . عبثاً ، عبثاً احاول الكتابة .

مَن هي ؟ ولماذا ؟ الأفضل ان ...

لا . لا . هذا فوق طاقتي . ماذا تبتغي مني هذه الفتاة ومَن هي ؟ هجرتُ الأرجنتين فراراً منها . فما أدراها انني في نيويورك ، ومن هداها الى صومعتي ؟

جلست لأكتب بعد ان انصرف الجميع – ولم ينصرفوا حتى الثالثة بعد نصف الليل . أنرت قنديلي واخذت قلمي بيدي فيبست يدي . وللحال شعرت انني لست وحدي . فسَرت القشعريرة في بدني ، وانتصب الشعر على رأسي . حاولت ان التفت الى الوراء فلم أقدر . والى اليمين واليسار فلم أقدر . فجمد الدم في عروقي وتباطأت دقات قلبي حتى كادت تنقطع . حاولت ان انهض فلم أقدر ، وان أفتح فمي فلم اتمكن . فجمدت كالحجر . واخيراً أملت نظري الى اليمين فرأيتها .

عادت القشعريرة اليّ . اصابعي تأبى ان تطيعني . فلأسترح .

هي . هي . ما تغيّر فيها شيء منذ ظهرت لي للمرة الاولى . وذاك الجرح الواسع في نحرها لم يضمد حتى الآن . والدم ما يزال يتدفق منه . وذلك الحزن العميق الجامد في عينيها الواسعتين ما يبرح عميقاً وجامداً ورهيباً . شعرها الأسود الطويل ما يزال مسدولاً على كتفيها . ونهداها ما يزالان نافرين من تحت ردائها الأبيض الشفاف . ويسراها ما تزال على نحرها كأنها تحاول وقف الدم المتدفق من جرحها الهائل . وجهها كالعاج — لا حياة فيه . لكنّ عينيها ... رفعت نظري اليهما فخيّل اليّ ان كل احزان البشرية وآلامها تحدّق بي من خلف اهدابها . جامدتان لا تتحركان . لكنهما اعمق من اللجّة . لا انتقام فيهما ولا ثورة ولا مرارة — بل حزن لا قرار له . وسؤال ... بل توسّل ... لماذا تتوسّل اليّ ؟ وماذا استطيع ان أفعل من اجلها ؟

ما أهول الحزن العميق الساكت ! وهذه المرأة هي اقنوم الحزن والسكوت . يخيّل اليّ انها لو فتحت فاها لتفجر الحزن من عينيها كالسيل . وحينئذ لما ارتجفت اعصابي . لكنها ساكتة . وسكوتها يرعبني . انا كذلك ساكت . ولكن سكوتي لا يرعب الناس . اما سكوتها فكلّه رهبة وقشعريرة .

وقفتْ بجانبي ، ولا أدري كم طال وقوفها — ألحظة أم دهراً. وكما ظهرت بغتة اختفت بغتة . وتركتني مرضّض الجسم كأني هبطتُ من بين مخالب نسر في قبة الفلك .

أمر عجيب غريب . كلما زارتني هذه الفتاة شعرت كأنّ ضباباً كثيفاً يكتنف أفكاري . والأغرب من ذلك انه كلما طال وقوفها بجانبي شعرت بالضباب ينقشع رويداً رويداً عن افكاري . ثم شعرت كأنّ قرابة بعيدة تربطني بها — كأني رأيتها من قبل. كأني عرفتها. كأنّ بيني وبينها صلة . وأحياناً أكاد اذكر اين رأيتها ، وكيف عرفتها ، والصلة التي تربطني بها . واذ توشك الغشاوة ان تنقشع عن افكاري تماماً اطلبها فلا أجدها .

صبراً يا أرقش . فبالصبر والسكوت تنال كل شيء .

الأحد

سكوت .

الاثنين

سكوت .

الثلاثاء

سكوت .

الأربعاء

لقد اشتاقت نفسي عرائس الليل . وصومعتي لا نافذة فيها ارقب منها النجوم . ولو كانت فيها نافذة لما مكّنتني من رؤية كوكب واحد . لأنّ يد الانسان قد فعلت كل ما في وسعها لتحجب النجوم عن عينيه . لذاك خرجت الليلة الى شاطىء البحر . فجلست هناك ورفعت بصري الى فوق . وهكذا صرفت الليل كلّه ناسياً انني خادم في مقهى .

«لهم عيون ولا يبصرون . ولهم آذان ولا يسمعون» — وماذا يبصر الناس او يسمعون ؟ كانوا يمرون من حولي بالمئات وابصارهم لا ترتفع عن الأرض ، وآذانهم لا تسمع سوى دندنة اصواتهم وثرثرة ألسنتهم التي لا تكلّ ولا تملّ من التحدث عن حاجاتهم الجسدية وشهواتهم الأرضية وآمالهم الحقيرة .

سمعت واحداً يقول : ما ألطف هذه الليلة ! وهو يعني انها

دافئة . والبشر يقيسون الطبيعة بميزان الحرارة . وسمعت آخر يقول : ما أجمل النجوم ! لكنه كان ينظر الى ما بين قدميه .

أنا والنجوم — تلميذ واستاذ . فيها رأيت مجد الله . ومنها عرفت عظمتي كصورة الله ومثاله وحقارتي كتراب .

انا والنجوم عالمان لا متناهيان . والعالمان يؤلفان عالماً واحداً لا متناهياً هو الأرقش — ذلك الانسان الصغير المجهول الذي له وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس .

اما الناس فلا يفهمون ان مَن ينظر الى النجوم يجب ان ينظر اليها بخشوع وصمت .

لذاك سكتُّ والناس يتكلمون .

السبت

لم يكد شين يفتح الباب صباحاً ويراني حتى انهال عليَّ بالتقريع والشتائم السفيهة :

« اين كنت مقبوراً البارحة يا أرقش النحس ؟ كيت و كيت منك ومن امك وابيك ! انت سوف تخرب بيتي . ملعونة الساعة التي رأيتك فيها . الحقُّ عليَّ لأني آويتك واطعمتك

وسقيتك وأعطيتك معاشاً فوق ذلك . كيف تركتني الليلة البارحة وانا مربّط لا اقدر ان اتحرك ؟ اين كنت مقبوراً ؟ الخ . »

وبماذا أجيبه ؟ هل أقول له – ولا همّ له في الحياة الا نقل المال من جيوب الغير الى جيبه – اني كنت ارقب النجوم ؟ وكيف لي أن أفهمه أن مسامرة النجوم والأمواج اجدى من طبخ القهوة وتقديمها للزبائن وقبض الفلوس منهم ؟

قناعة الجسد فضيلة . اما قناعة الروح فجريمة .

وشين قنوع بروحه طموح بجسده . اذا مرّت ليلة ولم تجر عنده لعبة قمار اكفهرّ وجهه ، وغارت عيناه ، وتدلّى شارباه وجلس كأنه الهمّ بعينه يندب حظه وسوء طالعه . ثم تشتد عليه اوجاع « الروماتزم » وتكثر حاجات أولاده ومطالب زوجه ولوازم بيته وتكاليف شغله وديونه . اما الليلة التي يرى فيها زمرة لا بأس بها من مبذّري الأموال والأعمار ودافني الوزنات المعطاة لهم من الله فتنبسط اساريره ، ويرتفع طرفا شاربيه ، وتخرج عيناه من تحت حاجبيه الكثيفين ، وينسى « الروماتزم » وزوجه وأولاده ، وتقلّ حاجاتهم وتكاليفه . فيأخذ نارجيلته ويجلس باسماً ، واضعاً رجلاً فوق رجل . ويبدأ باعطاء الأوامر للأرقش : يا ارقش خذ . يا أرقش هات .

اما زبائن شين فكأنّ الله جعلهم من طين ونسي ان ينفخ فيهم من روحه . إلاّ سنحاريب . ذاك هو الاسم الذي يُعرف به في المقهى . اما اسمه الحقيقي فلا اعرفه . وقد وجدت ما يشبه القرابة بيني وبينه . وشعرت غير مرة بدافع يدفعني الى مكالمته . ولكنني لم اكلمه ، ولن اكلمه .

يمشي هذا الرجل على الأرض سرّاً مكتوماً . وانا كلما نظرت اليه ابصرت أمام عيني علامة استفهام كبيرة . هو من الزبائن الدائمين . لا تكاد تمضي ليلة الا نراه فيها عندنا . فلا العواصف تقعده عن المجيء ، ولا الثلوج ، ولا الأمطار ، ولا الحر ولا القرّ . يأتي كل مساء نحو الثامنة فيطرح سلامه على شين ويجلس على كرسيّ بقرب الشبّاك ثم يطلب قهوة فيمتص منها مصّة ويشعل سيكاره ويفتح جريدته ويقرأ . ولا يرفع انفه الطويل الأقنى عن سطورها حتى يجتمع رهط من المقامرين ، فيناديه احدهم : سنحاريب . ما قولك بلعبة بوكر ؟ وحينئذٍ ينهض على مهل ويأخذ كرسياً ويجلس الى طاولة القمار . وهناك يبقى صامتاً ، جامداً ، غارقاً في اللعب الى ان ينهض الجميع وينادوا بالذهاب . فينهض ويخرج معهم غير آبه للربح او للخسارة .

كلامه قليل للغاية . صوته مختنق لا يكاد يُسمع . حركاته

بطيئة ، متثاقلة ، متقطعة . وجه مكفهر ، هزيل كأن خديه قد شدا بأسيار من الداخل . أصابعه كأصابع المدراة . ولباسه قديم تقطعت اكثر أزراره . أما عيناه ففيهما نور كنور القمر — هادىء ، بارد ، عميق ، محزن . انا ارقب كل حركاته واسعى أن ألفت نظره الي . لكنه يأتي ويروح وكأنه لا يشعر بوجودي . الكل يتهكم عليه . وهو يقابل تهكمهم ببرودة عجيبة واحياناً يشاركهم في التهكم .

لقد وجدت في سنحاريب تعزية كبيرة وان كنت في غنى عن تعزية البشر .

الجمعة

قال الجاهل في قلبه : «ليس اله»

واله الجاهل جهله .

وماذا ، ترى ، يقول سنحاريب ؟ خطر لي اليوم ان اطرح عليه هذا السؤال لكنني عدت فارتدعت .

من طبيعة الانسان إنكار ما يجهل . فعلامَ لا ينكر نفسه ؟ ومن جبل الانسان انه يسعى الى المعرفة بحواسه الخارجية لا غير . وحواسه الخارجية لا تتعدى ظواهر الأمور . وهي محصورة

ومحدودة . فكل ما تتناوله محصور ومحدود . وهي خدّاعة . فكل ما تحسّه خداع . اما الحواس التي لا تستند الى عينين واذنين ويدين ومنخرين ولسان فهي في عرف الناس اوهام واضغاث احلام . ولو قلت لأحدهم ان له عيناً باطنية ، واذناً ليست من لحم ودم ، وانه بالتأمل والسكوت يبصر ما لا تبصره العين ويسمع ما لا تسمعه الاذن — لو قلت له ذلك لرماك بالطيش والجنون . وكيف لمن يبصر ما لا يبصره الناس ويسمع ما لا يسمعونه الا ان يكون مجنوناً في عرف الناس ؟

كثرة الكلام ملهاة للفكر . والبشر يهربون من السكوت والتأمل . فأنّى لهم ان يدركوا الله ؟ والذين ينادون باسم الله من غير ان يدركوه بالتأمل والسكوت — من غير ان يجدوه في انفسهم — انما ينادون باسم لا مسمى له . ولو ان البشر عرفوا الله لما قسموه الى عبراني ومسيحي ومسلم وبوذي ووثني ، ولما اهرق انسان دم انسان ، ولا أبغض انسان انساناً من اجل الله . وما انقسم البشر مللاً ونحلاً الا لانهم حاولوا المستحيل فحددوا الله الذي لا يحدّ بلغاتهم المحدودة ، وقاسوا ما لا يقاس بمقاييس بشرية ارضية . وسيبقون كذلك الى ان يدركوا قوة الفكر ، والى ان يسكتوا متأملين ومتفاهمين بالأفكار لا بالألسنة . ويوم يدرك الانسان قوة الفكر ثم يستطيع تسييرها

حسب هواه، يومئذٍ يصبح في امكانه ان ينقل الجبال ويحمل البحار على أكف الرياح .

وهل يتأمل سنحاريب في سكوته ، ام انه ساكت لغاية في نفسه ؟

الخميس

يوم سكوت .

لو كان لي السلطان المطلق في الأرض لأمرت بيوم واحد في الاقل من كل سنة يكرّسه كل شعوب الأرض للسكوت والتأمل . لكن هناك أمماً محنتها الثرثرة . فهذه احتّم عليها الصمت شهراً كاملاً في كل عام .

الأحد

اليوم سألت نفسي : مَن أنا ؟

فكان الجواب صمتاً طويلاً عميقاً .

أنا انسان . والانسان يولد من أب وأم . فمن هو أبي ، ومن هي أمي ؟

هل حملتني امرأة في بطنها تسعة أشهر ، ثم غذّتني بثديها ، وحرستني بحنوّها ، وأدفأتني بحرارة قلبها ؟ هل كانت تبسم لبسمتي ، وتتألم لألمي ، وتسهر الليالي فوق سريري ، وتدعوني باسم معلوم ، وما هو ذلك الاسم ؟ هل تبلّلت عيناها بالدموع عند فراقي ، وهل تعرف اين ابنها الآن ، وتفكّر به وتحنّ اليه ؟ أين هي تلك المرأة في هذه الدقيقة — أفي هذا العالم ام في ذلك ؟ من هي المرأة التي يمكنني ان ادعوها امّي ؟

الناس يعظمون الأم ويمجدونها ويكادون يؤلهونها ، فيبكون لفراقها ، وينوحون لموتها . وها أنا لا أعرف لي امّاً ، ولا ينقبض قلبي عندما افكّر بأن لا أمّ لي . فانا أنا — بأمٍّ وبدون امّ . وأنا انا — بأب وبغير أب .

ثم ها أنا أردد : امي ، امي ، امي ! وأبي ، أبي ، ابي ! وقلبي ساكن لا يتحرك فيه وَتَر فرح او ترح .

أتراني ولدت من غير أب وأم ؟

وأين وُلدت ؟

الناس يدعون المكان الذي يولدون فيه « وطناً » . وهذه الكلمة مقدسة في عرفهم . فهم يذرفون الدمع لفراق اوطانهم ويذوبون حنيناً اليها . ولماذا ؟ لانهم ألفوها . فالوطن ليس اكثر من عادة . والبشر عبيد عاداتهم . ولأنهم عبيد عاداتهم

تراهم قسموا الأرض الى مناطق صغيرة يدعونها اوطانهم . «هذا وطني وذلك وطنك . فالزم حدود وطنك ولا تتعدّ حدود وطني . وان فعلتَ قابلتك بحد السيف . » والسيف ما يزال يحصد اعناق البشر من يوم استعبدوا لعادة الوطن ولصنم يعبدونه باسم «الوطنية» .

تاهاساكي وُلد في الجزر اليابانية من أب ياباني وامّ يابانية . فهو ياباني والجزر اليابانية وطنه . ولذلك فالعالم في نظره ينقسم الى قسمين : اليابان وغير اليابان . واليابان هي القسم الأفضل والاهمّ .

لكنّ هنغ لي كاي ولد في الصين من أب صينيّ وام صينية . فالصين وطنه . والعالم في عرفه ينقسم الى قسمين : الصين وغير الصين . والصين هي القسم الأفضل والأهم .

وإيفان بورجينسكي وُلد في روسيا من أب روسيّ وام روسية . فهو روسيّ وروسيا وطنه . لذلك ينقسم العالم في عينيه الى قسمين : روسيا وغير روسيا . وروسيا هي القسم الأفضل والأهمّ .

وهكذا قل في سائر شعوب الأرض .

اما انا — قسم الانسانية الساكت — فما ادري ولا يهمني ان ادري ، اين ولدت او بين ولدت . لذلك لا وطن لي .

ولو كان لي وطن لتبرأت منه . فانا ابن العالم الأوسع لا ابن جرم صغير ندعوه الأرض . ولو كانت الأرض بكاملها لي ثم جاءني زنجي من افريقيا يزاحمني على فتر منها لتخليت له عنها باسرها .

واما تاهاساكي فلو كان له نصف الأرض وكان لمنغ لي كاي النصف الآخر لقام يزاحم هنغ لي كاي على نصفه مدفوعاً «بعامل الوطنية وحب الوطن» .

الاثنين

ها هم الناس قد اشتبكوا في حرب يقال ان التاريخ لم يشهد مثلها بعد . وهم يموتون اشنع الميتات بالآلاف والملايين . ولماذا ؟ هل ضاقت الأرض بهم ؟ معاذ الله ! فالأرض هي هي . لا يقدرون ان يضيفوا اليها او ان ينقصوا منها ذرة واحدة ، سواء أكانوا الف نسمة او الف ربوة . والأرض ما كانت يوماً أماً ولوداً حمقاء ، تلد فوق ما في استطاعتها ان تحضن وان تغذي . لكن الناس ورثوا في الأرض ميراثاً مشتركاً فلم يتركوه مشتركاً ، بل اقتسموه ولا يزالون في خلاف على

القمة . ولئلا يقال انهم يتناهشون كالكلاب على عظمة ابتدعوا «الوطن وحبّ الوطن وشرف الوطنية» . والانسان من شأنه ان يقتل أخاه الانسان في سبيل ما يجهل كما كان ، وما يروح ، يقاتله في سبيل الله . ولأن «الوطن والوطنية والشرف» اسماء مبهمة عليه فهو يقاتل ويضحي بكل ما لديه من أجلها .

لعلّ اكره ما يكرهه الناس الحرب . فهي في نظرهم شرّ عظيم . ولكنه شرّ لا مناص منه . وهي شرّ في اعتقادهم لكثرة ما يُهرق فيها من الدماء وما يُدمّر من المساكن ويُتلف من الخيرات ، ثم لكثرة ما تسببه من الآلام للمحاربين وغير المحاربين بالسواء . ويا ليت شرّها اقتصر على ذلك لا غير . فالطبيعة من دأبها ان تعوّض عن الدم المسفوح بدم جديد ، وعن الأموات بالأحياء ، وعن الخيرات المتلفة بخيرات سواها ، وأن تكفّن الألم بأكفان من السلوان .

لكن شرّ الحرب الأكبر هو في قتلها الروح قبل الجسد ؛ بتحويلها قوى الانسان عن عدوّ في نفسه الى عدوّ خارج عنه . وما من عدوّ للانسان غير نفسه . هكذا تقول الحرب لفون شوستر — مثلاً :

«اسمع يا فون شوستر . انت رجل لا تعرف شيئاً عن نفسك ، وعن خالقك ، وعن غايتك من وجودك . وانت

كذوب ونمّام ومحتال . وانت تشتهي ما اقربيك ، فتسرق وتقتل ، وتزني بالفكر وبالفعل . وانت تقامر وتسكر وتضرب زوجك لسبب ولغير ما سبب . وانت معذّب اشدّ العذاب بقلبك وفكرك وجسدك . ولكم سمعتك تتمنى لو لم تولد . لا بأس يا فون شوستر . فهذه الامور كلها ليست بشيء . لأنك ولدت في مونيخ . فانت الماني قبل كل شيء وبعد كل شيء . والمانيا وطنك . وانت ، من غير شك ، تحب وطنك ، وعاطفتك الوطنية حية .

« أوَ تعرف من هو عدوّك يا فون شوستر ؟ ما هو الجهل ولا السكر ولا الكذب ولا النميمة ولا الزنى ولا ضعف الارادة ولا ضيق ابواب الرزق وما يسببه لك من سويداء ووجع . ان عدوّك هو «جان جاردينيه» ، لأنه لم يولد في مونيخ ، ولا في بادن — بادن ، ولا في دانتسيغ ، بل وراء حدود المانيا . والأغرب من ذاك انه لا يتكلم الالمانية ، ولا يأكل ما تأكل ، ولا يلبس ما تلبس ، ولا وجهه اشقر كوجهك . هذا هو عدوّك . فاستلّ سيفك واقطع عنقه . وحينئذٍ تنزل عليك السعادة في سلة من السماء . »

وهكذا تقول الحرب لجان جاردينيه عن فون شوستر ، ولبورجنسكي عن تاهاساكي ، ولتاهاساكي عن هنغ لي كاي .

فيشتبكون في صراع عنيف ، وتسيل دماؤهم ، وتتقوض مساكنهم على رؤوسهم ، وتتمزق قلوبهم ، والذي يتفوق في ازهاق الارواح ، وتمزيق القلوب ، وإتلاف خيرات الأرض هو الذي تغدق عليه الحرب امجادها ، فتجلسه على منصة الشرف ، وتثقل صدره بالأوسمة ، وجيوبه بالمال ، وأذنيه بالتصفيق والتهليل . في حين تمشي المروءة ، والصدق ، والأمانة ، والمحبة ، والسلم ، والايمان بالحياة وعدل الحياة — تمشي في الازقة وليس من يسمع وطء أقدامها ، او يعيرها التفاتة عابرة .

من سيئات الحرب انها تُجلس البطولة الزائفة على عرش البطولة الحقة . فتدعو الذي يقهر أخاه الانسان « بطلاً » وتبالغ في تمجيده وتكريمه . والذي يقاهر نفسه ليحسن معاملة اخيه الانسان تدعوه « جباناً » وتنبذه نبذ النواة .

انا في عرف شين وزبانيته جبان . لاني اتحمل في كل يوم من تهكمهم وازدرائهم ما لو كان موجّهاً الى سواي لاستلّ خنجره وأشغل كفه بالضرب يميناً وشمالاً دفاعاً عن « شرفه » . لكنني أرفض ان ألهو عن تدبّر مقتدر في نفسي باعداء ضعفاء ليسوا أهلاً لأن انفخ ضدّهم نفخة في الهواء دفاعاً عن « شرفي » . فشرفي الحقيقي ابعد من ان تصل اليه ألسنتهم واطهر من ان تدنسه بذاءتهم . هو بعيد عنهم بُعد افكاري عن افكارهم .

لذاك سكتُّ والناس يتكلمون .

الثلاثاء

رأيت اليوم على شاطىء البحر فتاة جالسة على صخرة . فجلستُ على صخرة مقابلة ورحنا نتحدث .

سألتها (ساكتاً) : ماذا تفعلين هنا ايتها الفتاة؟

فأجابت (ساكتة) : الناس يستحمّون بماء البحر وانا استحمّ بأحزاني .

قلت (ساكتاً) : وما يحزنك ايتها الفتاة ؟

قالت (ساكتة) : فتشت طويلاً عن فتىً احبه فلم اجد . وكان قلبي طافحاً بالحب . فذوى الحب فيه ويبس وانقلب الى مرارة . فقلبي الآن واسع كالبحر . لكن شواطئه من ملح وامواجه من علقم . فصمتُّ متخشعاً امام بحر المرارة .

وسألت نفسي : ما هو الحب ؟ فلم اسمع جواباً .

وسألت قلبي : ما هو الحب ؟ فظلّ قلبي صامتاً . وقلبي ، مع ذلك ، ليس بحراً أمواجه من علقم وشواطئه من ملح .

الأربعاء

لي رفيق يشاطرني فراشي وطعامي . هو متوحّد ، ساكت مثلي ، منعزل عن ابناء جنسه انعزالي عن ابناء جنسي . ألِفته

والِفي ، وأحببته وأحبني . لا يحفل بملاطفة الغير ، ولا يأنس إلا بي ، ولا يقبل طعاماً من يد غير يدي . اذا رآني اشتغل جلس بعيداً عني وراح يرافق بعينيه كل حركة من حركاتي . واذا رآني جالساً اتأمّل اقترب مني على مهل وانبرى يدور حولي دورة بعد دورة رافعاً نظره بين الفينة والفينة اليّ ، حتى اذا التقت عيناي عينيه وصادف في نظري ارتياحاً اليه ، قفز الى حضني والتفّ في شكل كعكة ساتراً وجهه بيديه . ثم أخذ بالخرخرة . وكأنه بذلك يشاء ان يذكّرني بوجوده ويسألني ألا اطرحه من فكري .

اذا تغيبت عن المكان قليلاً عدت فوجدته دائماً بانتظاري خلف الباب . فما اكاد افتح الباب حتى يهبّ نحوي ، ويقف في طريقي كأنه يطلب ان ارفعه واضمّه الى صدري . فأفعل ذلك . وحينئذٍ يغمض عينيه مستسلماً للغبطة التي نالها .

فاجأته اليوم فألفيته جامداً في وسط الغرفة وفي فيه جرذ من عمالقة الجرذان ، وقد شدّ بأنيابه على عنقه . فلم يرفع نظره اليّ . بل لزم مكانه بلا حراك كأنه سُمّر الى الأرض ، وعيناه جاحظتان كأنهما من زجاج ، والجرذ بين انيابه لا يزال حياً وقد التوى في شبه قوس ، وتدلى ذنبه الطويل حتى لامس الأرض ، ورجلاه ويداه تخبط في الهواء كأنها تبحث عن

شيء تتبض عليه . واذ تكلّ تعود فتهدأ قليلاً . فيتدلى جسم الجرذ في خط مستقيم من فم رفيقي . واذ ذاك يفتح عينيه ، وقد كحلهما الموت ، ويبحث عن مفرّ . واذ لا يجده يطبق عينيه مستسلماً للقضاء . وتعود يداه ورجلاه تخبط في الهواء .

وقفت ارقب رفيقي وفريسته ، وكأنني اشهد اوّل جريمة في التاريخ . وكأنّ شرايين قلبي اتصلت بيديّ الجرذ ورجليه : اذا خفّ اختباطها او زاد خفّت دقات قلبي او زادت . حتى اذا خرج آخر نحب من احشاء الجرذ ولمعت عينا رفيقي ومشى باتجاه الصناديق ليتم هناك جريمته ، وجدتني كأنّ الهواء قد انقطع عني وبطلت حركة رئتيّ .

بعد ان ملكت نفسي نظرت الى حيث الصناديق فرأيت مَن كان منذ دقائق رفيقاً لي خارجاً من هناك يلحس شفتيه بلسانه ماحياً آخر أثر لجنايته وماشياً نحوي بخطوات متثاقلة كمن يتردد في الاقتراب مني ولا يدري أأنظر اليه بعد ما جرى نظري الى بطل او الى مجرم . اخيراً دنا مني واخذ يدور حواليّ جرياً على عادته ، ولكن دون ان يرفع نظره اليّ . وبعد ان دار طويلاً ولم يلاقِ تلطفاً وتودداً مني عاد الى ما بين الصناديق كسير الخاطر ، حائراً في امري . وبقي هنالك.

ليس رفيقي اوّل هرّ افترس جرذاً ، ولا ذاك الجرذ اول

من بُلي من ابناء جلدته بأنياب هرّ . فلماذا هزّني موت الجرذ وأمال قلبي عن رفيقي ؟ أوَليس ما فعله رفيقي «سنّة الله في خلقه» ؟

بلى . هي سنّة الطبيعة في ما كان دون الانسان . هي سنّتها في الهررة والجرذان . اما في الانسان فسنّتها اسمى بما لا يقاس . والا فما معنى تقزّزي من فعلة رفيقي، وما معنى هلع الانسان من اراقة دم الانسان ، ومن اين تحريمه للقتل ؟

يخنق الغني الفقير بألف حيلة من الحيل التي يعرفها الغنى . فيقول الناس : «هي سنّة الله في خلقه . أما يخنق الهرّ الفأرة ؟» ويسلب انسانٌ انساناً نعمة الحياة وجمال الحياة . فيقول الناس : «هي سنّة الله في خلقه . الا يسلب الهرّ الفأرة نعمة الحياة ؟» ويبطش شعب قوي بشعب ضعيف فيستعبده لمقاصده وشهواته . فيقول الناس : «هي سنّة الله في خلقه . ألا يبطش الهرّ بالفأرة ؟»

فيا ليت شعري، اما من فرق بين الهرّ وبين صورة الله ومثاله ؟ عبثاً يتستر الناس بمثال الهرّ والفأرة. أفما بلغهم بعد ان الموت عقاب المتسترين ، ونتيجة المعاندة لسنّة الله في خلقه ؟

الموت لخالق الموت . وهو الانسان الجاهل . اما الله الذي هو الحياة فكيف يخلق الموت ؟

الخميس

من يوم عرفت البشر حتى اليوم لم أرَ وجهاً بشرياً ارتسم عليه اليأس المطلق كوجه شين في هذا الصباح .

دخل وكأنه يحمل خبر افظع كارثة حلّت بالعالم من بعد الطوفان . كأنّ الشمس انطفأت ، والقمر والنجوم اختفت من الوجود ، والسماء هبطت على الأرض ، واللجّة ابتلعت اليابسة ، والهواء انقطعت انفاسه من كل اقطار المسكونة ، ومياه الأرض تحولت الى دم ، والجنس البشري انقرض فلم يبقَ سواه وسواي . وكل ذلك لماذا ؟ — لأن المصرف الذي يحفظ فيه ماله قد أفلس فخسر ثلاثة آلاف دولار ! . .

« ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . ثلاثة آلاف . خمس عشرة سنة صرفتها اركض الليل قبل النهار . وبطرفة عين راحت ، راحت ... واخرابك يا بيتي ! يا ضياعك يا عمري ! واويلكم يا اولادي ! برقبتي عيلة . من اين اطعمهم واسقيهم واكسوهم ؟ خرب الله بيوت الذين خربوا بيتي . ليجعل الذهب في ايديهم تراباً ، والخبز في افواههم حجارة ، والثياب على ابدانهم عقارب وحيّات ... ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . ثلاثة آلاف . راحت كأنها ما كانت . دولار بالمائة عوض . لكن عوضهم الموت الاحمر بجاه الله ! »

كان وهو يتفجع ذلك التفجع يفرك يديه ، ويلطم خدّيه بكفيه ، وينتف شعره ، ويمزّق ثيابه ، ويضرب الارض بالكرسي ، وعيناه مغرورقتان بالدموع . حتى ظننت ان الرجل قد خولط في عقله . بل كدت اجزم بذلك عندما انطرح عليّ والقى يديه على كتفيّ وهزني بعنف ارتجفت له كل اعصابي وراح يزمجر :

« ويحك تكلم . ويحك ادعُ معي على الذين كانوا سبب خراب بيتي . خرب الله بيتك . ويحك قل شيئاً . حرّك لسانك ولو بلعنة واحدة ... راحت القهوة . راحت الفلوس . وحنا كلنا تحت حوافر الجبل . ويحك ثلاثة آلاف . ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . خمس عشرة سنة عرقتُ دماً من أجلها . ضاعت ، وضاع العمر ، وضاعت العشرة الدولارات ادفعها لك شهرياً . أتحب ان تشتغل بعد اليوم بمؤونتك لا غير — أهلاً وسهلاً . والا ، فتّش الك عن عمل عند غيري . »

بعد ان فهمت سبب يأسه وتأكدت من ان الكون ما ينفك في دورانه الابدي ضحكت في قلبي ، لأن اول فكر طرأ له كان قطع جرايتي الشهرية . بارك الله له فيها .

وقد أسفت لحياة عائلة مؤلفة من سبع انفس قيمتها في الوجود قيمة ثلاثة آلاف دولار في مصرف — لا اكثر . فاذا

افلس المصرف افلست تلك الحياة . سبعة آلهة بثلاثة آلاف دولار . «يا بلاش !» وهناك صور من صور الله على الأرض لا قيمة لها البتة . لأنها لا تملك فلساً واحداً من الفلوس او فتراً واحداً من التراب . والناس ، مع ذلك ، يعجبون لحياتهم لا يستقيم لها وزن ، ولا يثبت لها اساس . وقد وزنوها بالدرهم واسّسوها على البيع والشراء . والحياة اخذ وعطاء ، لا بيع وشراء . اما اساسها فالله .

مثلما أشتغل انا «بالمؤونة» هكذا يجب ان يشتغل كل الناس . اما الاطفال والعجّز فيجب ان يعيشوا من كدّ الاقوياء والمقتدرين . واذ ذاك فالناس عائلة واحدة ، والأرض حقلهم ومخزنهم العائلي . واذ ذاك فالذي ينفقونه من العمر في سبيل الجسد لَشطر من العمر يسير . وما بقي فللدرس والتأمل وكشف الحجب عن الاله الكامن في الانسان .

في البيع والشراء شقاء البشر .

وفي الأخذ والعطاء مفتاح الخلاص .

الجمعة

ما عرفت بعد إنساناً اذا نزلت به نازلة لام نفسه لا غير . وكلهم يلوم إمّا الله ، وإمّا الظروف ، وإمّا الناس . وقد

يلومهم جميعاً . فعلامَ لا يعجبون للكواكب تتجاذب وتتدافع فتتوافق حركاتها في اتمّ نظام ؛ ويعجبون للناس يتجاذبون ويتدافعون بعضهم مع بعض ، ومع سائر الاكوان ، واذ تتوافق الحوادث التي تحدث لهم في اتمّ نظام ، ينكرون النظام ، وربّ النظام اذا كان الحادث غير ما يشتهون . ويمجدون النظام ورب النظام اذا كان الحادث طبق ما يشتهون او فوق ما يشتهون . وها هو شين – والناس كلهم شين – يلوم السماء والارض ولا يلوم نفسه . ولو انفتحت عينا قلبه للام نفسه دون كل الناس وقبل كل الناس .

هنالك بعض الذين يدّعون التقوى . والذين اذا حلّت بهم مصيبة قالوا : هي تجربة من الله . وقد فاتهم وفات جميع الناس ان الله معلّم لا مجرّب . فلا يجرّب الا الذي يجهل نتيجة التجربة .

والله يعلّم خائفيه وغير خائفيه بالسواء . فليس عنده محبوب وممقوت ، وجدير وغير جدير ، ونبيه وخامل . وهو يعلّم الناس تارة باللذة ، وطوراً بالألم . آناً بالمتعة ، وآونة بالحرمان . وما يزال ينوّع في الأمثلة وشروحها ، وزمانها ومكانها ، ويتدرج بنا في سلّم المعرفة درجة درجة حتى نفهم قصده منا وقصدنا منه .

ان مثالة واحدة يتقنها الانسان ، كأن يفهم أنّ المال لا يصلح ركناً للحياة ، أو ان اعماله ترتدّ اليه ، لجديرة بعمر كامل بحياه الانسان على الأرض . َمن فهم مثالة اصبح في غنى عنها فانصرف الى سواها . ومن لم يفهمها كان في حاجة الى تكرارها في شتى القوالب والألوان . لذلك لا تنفكّ الأوجاع بأصنافها تفتك بالناس . لأن الناس ما تعلّموا بعد ان المرب من الوجع الى اللذة هو وجه آخر من الوجع ، او هرب من مثالة لم يفهموها الى أخرى لا يفهمونها . وأن لا ملاذ من الوجع الاّ بمعرفة ما يتطلبه منا المعلّم الاكبر ، والعمل به .

السبت

لماذا كتب لك يا ارفش ، في هذه الفترة من حياتك ، أن تكون خادماً في مقهى ؟ وأين ؟ — في نيويورك ! وان تخالط روّاد المقاهي ، فتسمع عربداتهم ، وتشهد مشاجراتهم ، وتُرضي شهواتهم ؟

ان في ذاك لدرساً ، بل دروساً لك . فكن يقظاً وأحسن الدرس .

الاربعاء

نور الثقاب . ونور الغاز . ونور الكهرباء . ونور الشمس — نور واحد ، ومصدر واحد .

تبارك النور الذي منه كل نور ، والذي لا تغشاه ظلمة قط . وان في داخلي لجذوة من ينبوعك ايها النور الذي لا يخبو . وما اشدّ شوقها اليك والى الفناء فيك !

الخميس

نُوح !

وهل خطر ببال قاهر الطوفان ومؤسس السلالة البشرية الجديدة أنه ، بعد آلاف السنين ، سيكون يوماً ما سبباً لشجار في مقهى عربي في نيويورك ؟ !

ذلك بالتمام ما حصل عندنا البارحة بين رجلين يتباهيان بمعرفة اللغة العربية . فقد قال احدهما بصرف « نوح » وقال الآخر بمنعه من الصرف. فكان جدال ، وكان خصام وصياح . واذا بالكراسي والصحون والفناجين تتطاير . وكان نصيب سنحاريب الذي شاء ان يلعب دور المصلح ان هبط كرسيّ على رأسه فتمايل كالسكران ثم هوى الى الأرض مضرجاً بالدم المتدفق من رأسه .

لا اذكر ماذا جرى من بعد ذلك، لأن منظر الدم أفقدني شعوري . وقد أفقت من غيبوبتي فاذا بي في فراشي والظلمة تغمرني وتغمر المكان . حتى اليوم لم أشعر بحاجة الى رفيق . امّا الآن فكأنّ السكينة تضغط عليّ من كل جانب . ورفيق وحدتي قد اختفى منذ قتله الجرذ ولم يرجع . وحبذا لو يعود الآن . فأنا مستعد لأن اصفح له عن كل آثامه .

الجمعة

سنحاريب في المستشفى . وصارف نوح ومانعه من الصرف في السجن . ونوح ما يزال « ثلاثياً معتلّ العين » .

لله ما أسرع الناس في خلق اسباب الشقاق ، وما ابطأهم في خلق اسباب الوفاق ! وهل من شيء في عالم الناس لم يكن يوماً من الأيام مدعاة للخصام بين اثنين او أكثر؟ ولعل اغرب ما في شؤون الناس ادّعاؤهم انهم يختصمون على « الحق » .

ومتى يدرك الناس ان الحق ينفر من كل خصام ، وانهم ما اختصموا يوماً من الايام الا على الباطل ؟

ثم متى يدرك الناس ان اللغة وُجدت لخدمتهم، ولم يوجدوا لخدمة اللغة ، وان ليس على وجه الأرض لغة كاملة بتركيبها ،

كافية لتأدية كل انفعالات النفس وتموجات العواطف والأفكار؛ وان لا نفع من أية قاعدة لغوية الا بقدر ما ترفع من الالتباس وتساعد في دقة التعبير؟ اما القاعدة التي لا ترفع التباساً ولا تساعد في دقة التعبير فهي قيد من حديد.

ان اوسع اللغات وأجملها أبسطها. تلك هي لغة الأفكار والقلوب. اما لغة الشفاه والألسنة فسلّم يصعد به البشر الى لغة الأفكار والقلوب. فأبعدهم عنها اكثرهم قواعد وأدناهم من أسفل السلّم. وأقربهم منها أقلّهم قواعد واعلاهم في السلّم.

ويل لشعب لا يتغير ولا تتغير لغته في عالم سرّه التغيّر! انه كبركة ماء لا منفذ للماء منها أو اليها، تملؤها الرياح والسيول اقذاراً، فلا تلبث ان تكثر حشراتها وتنتشر منها الأوبئة وروائح الانحلال.

الأحد

انا والزمان فارس ومطية. فلا هو يسبقني ولا انا اسبقه. ومتى نبلغ الهدف فنحن لا فارس ولا مطية. واني لأشفق على الذين يسابقون الزمان فاذا بهم ما يبرحون حيث هم. واحق منهم بالشفقة اولئك الذين يمتطيهم الزمان وما يفتأون يرددون: «الوقت من ذهب.» فيا لثقل ما يحملون!

التردد ضعف ينجم عن خوف التندّم في المستقبل . وقد ترددت أمس قبل ان عزمت على عيـادة سنحاريب في المستشفى .

دخلت غرفته فوجدته في سريره يطالـع جريدة ، ورأسه ملفوف بشاش ابيض ، والى جانبه طاولة عليها عقاقير وادوات مختلفة . فوقفت في البـاب لا أدري ماذا أقول . ولساني يأبى الكلام لأطرح عليه السلام . فلبثت صامتاً واقتربت منه لعلّه يبصر مـا في عينيّ من ميـل اليه وشفقة عليه . وشعرت بيدي تمتد لمصافحته كأنها مستقلة عن سائر اعضائي . لكن سنحاريب اوقفها عندما نظر اليّ نظرة اشمئزاز وكراهية ، وادار وجهه عني ثم ضغط زرّاً فجاءت الممرضة في الحال . فقال لها من غير ان يلتفت اليهـا او اليّ : « ليخرج هذا الرجل من هنـا . » فخرجت حائراً ومـا ازال في حـيرة . هل خجل بلبـاسي او بوجهي ؟ ام اشتد عليه الوجع فلم يشأ مقابلة أحد من الناس ؟

ليفعل بي سنحاريب مهما شاء . وليفكر بي مـا شاء . امّا انا فقد انزلته من فكري مكاناً ليس لسواه . فكلانا سرّ مكتوم عن الناس .

الثلاثاء

واخجلي من نفسي ! فقد كذبت عليها في ما كتبته البارحة. لا شك في انني اميل الى سنحاريب واشفق عليه. لكنني ما ذهبت لعيادته بدافع الميل والشفقة لا غير. بل شاقني أن استطلع شيئاً من أمره.

احذر قلمك مثل لسانك يا ارقش. واحذر على نفسك من كليهما. ثم احذر على نفسك من نفسك.

الاربعاء

شين يبكي دراهمه وما من معزّ.

لقد مرّ على خسارته نحو الشهر وهو ما يزال يمشي كأنه شبح من الاشباح. واذا اضطرّ الى ذكر الحادث سمّاه « المصيبة ». وقد وضع اساساً جديداً للتاريخ. فهو يقسمه اليوم الى قسمين: ما جرى قبل « المصيبة » وما جرى بعدها. فاذا حدّث عن امر جرى في صباه لا يقول: « حدث ذلك وأنا في التاسعة او العاشرة من عمري » بل يقول: « حدث ذلك قبل المصيبة بكيت وكيت من السنين » او يقول: «جرى ذاك الأمر بعد المصيبة بأسبوع » او نحو ذلك.

ما من مصيبة الا الجهل . فالمصيبة تثقل على قدر جهلنا مصدرها ومعناها . وتخف على قدر فهمنا معناها ومصدرها .

الحبس

انا في يقظة . وخفقان قلبي شاهد على ذلك . لكنّ يديّ لا ترتجفان كالسابق .

لقد أَلِفتُ زياراتها الى حدّ . والليلة تأكّد لي انها تزورني زيارة صديق لا عدوّ . رأيت ذلك في عينيها . فالحزن الكثيف الصامت الكامن في اعماقها ليس حزن انتقام وغضب ، بل حزن حنوّ وشفقة . ولكنه ، لفرط عمقه ، يلوح هائلاً ورهيباً . ولهذا يرتجف قلبي . بل هو حتى الآن يرقص بين اضلاعي ، مع انها ذهبت ، وانا اعرف انها غير عائدة الليلة . أمّا عيناها فلا تزالان ترقبانني . وانا اشعر بقربهما . وقربهما يخيفني ويؤنسني في آن معاً .

استلقيت على فراشي لأستريح قليلاً . فقد تعبت من قضاء حاجات كثيرة . ولم اطفىء مصباحي اذ احببت ان استسلم الى التأمل ثم انهض الى قلمي ومذكراتي .

كنت احاول ان اعود بأفكاري الى الماضي علّني اذكر

مَن كنت ، واين ربيت، وكيف وصلت الى ما انا فيه الآن. وقد حاولت ذلك مراراً من قبل ولم افلح . فكنت في كل مرّة ابلغ حداً من ماضيّ اقف امامه وكأنني امام سور منيع لا يخترقه بصري ولا تتجاوزه ذاكرتي . أمّا الليلة فأوشكت ان أرى بعض ما وراء السور . ولكن مصباحي انطفأ بغتة . واذ نهضت لأشعله ابصرتها واقفة بجانب فراشي. . . فجمدت . . .

لم ارتجف مثلما ارتجفت في المرّة السابقة . لكن قلبي انقبض حتى ذاب واضمحلّ واكتنف الضباب افكاري فنسيت بماذا كنت افكّر . لا ظلمة الليل ولا ظلمة افكاري استطاعت ان تحجب جرحها المائل عن عينيّ . شمالها لا تزال على نحرها والدم لا يزال يتسرّب من بين اصابعها . اما يمينها فكانت مرفوعة تدلّ على الجرح ولا تتحرّك . ورأيت كذلك شفتيها تتحركان كأنهما تلفظان بعض المقاطع . الا انني ما سمعت شيئاً . ولعلّ اذنيّ سُدّتا من شدّة اضطرابي .

اطالت مكوثها هذه المرة فوق كل المرات السابقة . فشعرت بكل جوارحي انني اعرفها . بل كدت اذكر اين رأيتها. بل كدت اناديها باسمها. الاّ انها اختفت مثلما ظهرت، وتركتني في حيرة اعمق من ذي قبل .

عبثاً احاول الآن ان أعيد رسمها اليّ . فالضباب عاد فاكتنف أفكاري .

لا . لا شك في انني اعرفها . نعم أعرفها . فمن هي ؟

الجمعة

سكوت .

السبت

سكوت .

الأحد

معترك الحياة .

كلمتان ما اكثر ما تردّدهما ألسنة الناس وأقلامهم . تسمعهما الأذن ، او تمرّ بهما العين ، فتبعثان في النفس قلقاً وذعراً وقشعريرة . ويخيّل اليك ان الكون ساحة وغى وان

كل ما في الكون ومن فيه قد اشتبكوا في صراع عنيف ، عنيد ، دامٍ ، لا رحمة فيه ولا هوادة . وما من قائدٍ يدير المعركة . وما من مقاتل يأتمر الاّ بشهواته ونزعاته . فالكل يحارب الكل في سبيل ما يراه حقاً حلالاً له وحراماً على سواه. ثم ينتهي الكل الى حدّ واحد — الى الموت .

انه لمعترك الموت ، فما شأن الحياة منه ؟ ومتى كانت الحياة عراكاً ؟

انما الحياة مدرسة ومصهر ، وقطُ لم تكن معتركاً . وما يتراءى للجهّال معتركاً ليس غير الأتّون أعدّته الحياة لصهر أبنائها ، وتنقيتهم من كل ما علق بهم من رواسب الزمان والمكان لعلّهم يدركون اي معدن الهي هو معدن الانسان .

وما يحسبه الحمقى صراعاً من اجل المأكل والمشرب واللذة البهيمية ليس سوى الدروس تلقيها الحياة على عشّاقها لتنزع الغشاوات عن عيونهم لعلّهم يبصرون أيّ جمال هو جمال الحياة التي يتعشقون . انه لجمال مقيم . وما هو من لذائذ البطن والظهر بخلّ او بخمر .

الزائل لا يدوم . والدائم لا يزول . فما هو الدائم في كون كله للزوال؟ انه الزوال بعينه . أنقول ان الحياة زوال؟ بل هي ديمومة الزوال . هي القدرة التي تُزيل ولا تزول . فليعلم المعتركون.

اجل . مدرسة ومصهر هي الحياة . وهي تصهر وتعلّم كل ما اتصل بها ، ومَن اتصل بها ، مِن قريب او بعيد . وليس في استطاعة مخلوق ان يعيش « منعزلاً » عنها . فكل ما فيها ومن فيها للمصهر وللمدرسة . فهل احمق ممن يقسمون الناس الى « انعزاليين » ، و« مقاتلين » ? انه لقول هراء . فقد يكون اخو العزلة اقوى الناس شعوراً بالنار في مصهر الحياة ، وافهمهم لأهداف الناس ، واكثرهم كفاية لقيادتهم .

كل مقاتل اعمى . وهل يصلح الاعمى لقيادة العميان ?

الحياة مدرسة إلهية تعنى بتربية الآلهة . ولا ينال شهادتها النهائية الا الآلهة .

الاثنين

سامحك الله يا ارقش . لقد هدمتَ حصن عزلتك بيدك . ما كان اغناك عن زيارة سنحاريب في المستشفى !

لكنّ ما كان كان . ولا يكون الاّ ما يجب ان يكون . فلنتقبله بالسرور ولنقل له : اهلا وسهلا . هكذا قلت للرسول الذي جاءني امس من المستشفى برسالة من سنحاريب . وما أغربها رسالة : « اكتب وصيتك ! »

وماذا يملك الارقش يا سنحاريب ليوصي بـه لغيره ؟ انـه ليملك وجهاً كخشبة نخرها السوس . وذلك الوجه قد اوصى به للدود من زمان . وانّ على بدنه لثياباً . ولكن لا بدنه ملكه ، ولا ثيابه ملكه ، بل ملك الارض التي اقرضته اياها . وانـه ليملك اشواقاً لافحة لمعرفة نفسه . فلمن عساه يوصي بأشواقه الاّ لنفسه ؟

اذن ماذا يملك الأرقش ؟ لاشيء ؟ — معاذ الله وكرم الله ! فالأرقش يملك ، من كرم ربّه ، كل شيء : السماء وما فيها ، والارض ومـا عليها . فهو من كلّها كوّن ، وبها كلّها يحيا . وهذه كيف يوصي بهـا ولمن يوصي بهـا ، ولا يستطيع التمتع بملكيتها الاّ الذين انعتقوا من كل ملك ؟

ولماذا يريدني سنحاريب أن أكتب وصيتي ؟ وما همه أكتبت وصيتي أم لم أكتبها ؟ ألعله نبي ينذرني بدنوّ اجلي ؟ وهل لأجلي اجل ؟

•

الأربعاء

امرٌ غريب . اراني من بعد ان جاءتني رسالة سنحاريب لا اكاد افكّر في شيء الاّ الموت . فكأنه في كل خطوة اخطوها ، ولقمة أزدردها ، ونَفَس أتنفسه ، وفي كل خيط من الخيوط التي تستر بدني . وكأنني المسه في كل ما المس ، وابصره واسمعه

في كل ما ابصر واسمع . ولكم فكّرت فيه من قبل . ولكن تفكيري اليوم غيره في الأمس . لقد كان الموت علة ادرسها فاذا به اليوم علة تدرسني . كان بعيداً فاقترب . وكان اسماً فأصبح رسماً .

تعالَ ايها الموت . تعالَ نتسامر – ونتحاسب .

الموت : لبّيك يا ارقش لبّيك !

الارقش : ومَن ارسلك اليّ ؟

الموت : دعوتني فلبّيت .

الارقش : أنا دعوتك ؟ !.. بلى ، بلى ... انا دعوتك . ولكن لماذا دعوتك ؟

الموت : أفما قلت لنتسامر – ونتحاسب ؟ وما هي بالمرة الاولى نتسامر ونتحاسب يا ارقش .

الارقش : ما اذكر اننا تسامرنا وتحاسبنا من قبل.

الموت : وكيف تذكر وانت ما تزال فرخ انسان ؟ وها انت دعوتني منذ لحظة ثم نسيت .

الارقش : فرخ انسان ؟ بل انا انسان كامل وان اكن ضئيل الحجم ، ويكن لي وجه كخشبة نخرها السوس .

الموت : لا شغل للموت مع الكاملين .

الارقش : وما هو شغلك ايها الموت ؟

الموت : ان اكتمل الناقصين .

الارقش : واذا اكتمل الكل ؟

الموت : مات الموت . ولكن الكل لن يكتملوا دفعة واحدة . فلا مناص من الموت ما دامت السماء والارض في قران ابديّ .

الارقش : ومتى يكتمل الارقش ؟

الموت : يوم لا يستدين ولا يُدين .

الارقش : أفصح .

الموت : يومَ لا يُميت ليحيا .

الارقش : قلتُ افصح .

الموت : يومَ يحيا بما لا يموت .

الارقش : أعيد القول : أفصح !

الموت : سكوت .

الارقش : ليت الموت يموت ويتركنا ناقصين . او ليتنا نكتمل بغير الموت .

الموت : كنت اظنك غير الناس ، فاذا أنت كسائر الناس ، تتمنى ما لو تمّ لك لندمت عليه .

أمّا ان يتركك الموت ناقصاً فعكس ما تشتهيه بالتمام . أما سمعتك امس تتمنى لو تعرف من انت ؟

واماّ ان تكتمل بغير الموت فأمر مستحيل . ولكي تفهم ما اقول حاول ان تصوّر لنفسك عالماً لا موت فيه . فلا شوكة تموت ولا زهرة ، ولا برغشة ولا ذبابة ، ولا بومة ولا حدأة ، ولا حيّة ولا سمكة ، ولا نمر ولا ذئب ، ولا جمَل ولا حمَل ، ولا ظربان ولا انسان . وعالم لا موت فيه عالم ينمو باطّراد . لأن الجمود موت .

والآن صوّر لنفسك برغشة — ولا اقول انساناً . صوّرها تنمو وتنمو وتنمو منذ بدء الخليقة . افما كانت تملأ الأرض ؟ واذ ذاك فأين انت وباقي المخلوقات ؟ وان انت حدّدت عدد المخلوقات ، ثم حدّدت نموها كذلك ، فبماذا تقيتها ؟ ألستَ تدشق الحياة لأن فيها ما يؤكل ويُشرب ويُشمّ ويُبصر ؟

إذن كان لا بدّ لكل ما يأكل من ان يؤكل . فالأرض ام رؤوم ، والسماء ابٌ حنون . وهما يطعمان ما يلدان من جسديهما ، ويحييانه بروحيهما . فالاجساد للاجساد والارواح للأرواح . امّا الاجساد فلا بدّ من موتها لانها في حاجة الى الغذاء ؛ وما كان في حاجة الى الغذاء كان لا مندوحة له عن ان يتغذى بغيره ويتغذى غيره به . ولولا الموت لضاقت الارض والسماء بما تنسلان . واماّ الارواح فغذاؤها الأرواح . وهي لا حجم لها ولا قياس . فلا الأرض تضيق بها ولا السماء .

ما عاش الارقش ما عاشه من السنين من غير ان يستدين ويُدين . افما من دَين غير دَين المال ؟ فالعواطف والافكار ، واللذة والألم ، والصدق والكذب ، وسواها ـ كل هذه كذلك تُدان وتستدان . فعلى الارقش ان يوفي دينه .

ثم ما عاش الارقش ما عاشه من السنين من غير ان يقتات بجسد الأرض . فيُميت ليحيا . لذلك لا بدّ له من ان يموت ليُحيي .

امّا متى اصبح في امكان الارقش ان يحيا بما لا يموت ـ بالروح وحده ـ فعندئذٍ يكتمل الارقش فلا يدنو الموت منه .

الارقش : افما كان خيراً لي ، وقد كنتُ روحاً في البداية ، لو بقيت كذلك الى الابد ، فلا ادين ولا استدين ، ولا أميت لأحيا ؟

الموت : ليس الجواب على سؤالك هذا من شأني . فما انا غير جابي الحياة ، والمعلّم الاكبر في مدرستها ، وغير رسولها . والذي اجبيه من الاحياء هو ما استدانوه من الاحياء . والذي اعلّمه الناس هو أنّ ما يزول لا يدوم ، وما لا يدوم يزول . وانا ما ازال بهم اطويهم ثم انشرهم ، ثم اطويهم ثم انشرهم ، الى ان يتقنوا ذلك الدرس الأهم والأخير . ومتى اتقنوه وعاشوا به اصبحوا في غنىً عني . واني لأحسبك في عداد تلامذتي النجباء .

الارقش : وما هي رسالتك اليوم الى الارقش ؟

فناولني الموت ورقة مطوية ما فتحتها حتى ارتعدت مفاصلي ، ومشت القشعريرة في بدني ، وجمد الدم في عروقي ، وانعقد لساني . لان الذي قرأته في الورقة ما كان غير الكلمتين اللتين قرأتهما في رسالة سنحاريب : « اكتب وصيتك » ... وبعد جهد ملكت روعي فعدت اساجل الموت :

الأرقش : واية وصيّة تعني وليس لديّ ما اوصي به لمخلوق ؟

الموت : لديك نفسك فابذلها .

الأرقش : ولمن ابذلها ؟

الموت : لنفسك .

الارقش : أبذل نفسي لنفسي ؟ لست أفهم .

الموت : تخلَّ عن نفسك الزائلة لنفسك الدائمة .

الارقش : اذن تريد من الأرقش ان يمحو الأرقش ؟

الموت : بل اريد من الأرقش ان يصبح القوة التي تمحو ولا تُمحى .

الارقش : لقد محوت الكثير من حياتي اذ محوت اسمي من سجلاّت الناس . ولقد صمت عن الكلام ، وعن اللحم والدم ، وعن الكثير من لذاذات النفس والجسد . فماذا تريدني ان أمحو بعد ؟

الموت : امحُ الارقش الذي ما يزال عرضة للنموّ والانحلال .

الأرقش : قل لي . ما السرّ في ان الألم رفيق ملازم للموت ؟ ويقيني انك لولا الألم الذي تلمس به كل ما تلمس لما كنتَ مكروهاً من الناس الى حد كرههم لك .

الموت : إنّما اكشف الألم المخزون في الناس ولا اخزنه فيهم . فالناس يخزنون اللذة . ومن شأن اللذة المخزونة ان تتحوّل ألماً ، لانها مبتاعة بالألم . ولا شأن لي على الاطلاق في ما تخزنه او يخزنه سواك من الناس . فليعرف الناس ماذا يخزنون .

الارقش : ومن ثَمّ فما الحكمة — حكمتك — في تعجيلك مع البعض وتأجيلك مع الآخر ، كأن تذهب بطفلٍ في مهده وتتساهل مع اخيه الى شيخوخة طويلة ؟

الموت : لست سوى المنفذ الأمين لما يقضيه الناس لأنفسهم أو عليها . فهم ما ينفكّون في تبادل وتفاعل دائمين مع الكون . يشتهون اشياء ، ويُعرضون عن اشياء ، ويتلفون اشياء ، مثلما يبغضون بعض الناس ، ويحبّون بعض الناس ، ويقاتلون بعض الناس . وهكذا يقضون لانفسهم وعلى انفسهم بنتائج تحتمها اعمالهم وشهواتهم وهم لا يعلمون . اما الحياة فتعلم ما يجهلون . وما من طفل الا ّ كان قبل ان يولد ، وكان له مع الحياة حساب .

الأرقش : لقد سامرتني ايا الموت . واني لك من

الشاكرين . ولقد حاسبتني فما عرفت بعد رصيد حسابي .

الموت : اكتب وصيتك .

الارقش : وإن لم اكتبها ؟

***

ما هذه الخرخرة ، ومن اين ؟.. هذا انت يا رفيقي الأمين ؟ لقد عاد رفيقي ، فمرحباً بـه . وهو يدور من حولي ويترقب سانحة ليقفز الى حضني . تعالَ يا رفيقي ، تعالَ . مغفورة لك خطاياك . لقـد ادبر الموت منذ اقبلتَ . فما اجملك سميراً ، وما اعذبك مرنّماً ! اما سمعتَ ما قاله الموت : مَن استطاب لحم الجرذان استطابت لحمه الثعالب ؟

رفيقي : لقد خدعك الموت . فما همّي من الثعالب ما دام في الأرض فئران وجرذان ؟

أنا : اما تكره الموت ؟

رفيقي : وكيف اكره الموت وانا الموت ؟ اما رأيتَ ما فعلته بالجرذ ؟ وعضةٌ من فخذ جرذ سمين لهَديّةٌ يقدّمها اليّ الموت لو شئتُ ان اثمّنها لما استطعت .

أنا : لعلّك تحبّ الموت لغيرك وتكرهه لنفسك ؟

رفيقي : من غير شك . وإلاّ لكنت هرّاً أبله .

أنا : اذن انت تكره الموت وتحبه في آن معاً .

رفيقي : واي عجب في ذلك ؟ فالموت موتان : موت ننزله بالغير ، وموت ينزله الغير بنا . موت نحيا به ، وموت يحيا بنا . حتى الموت في حاجة الى الحياة . اذ لا حياة للموت الا ّ بالحياة . ولولاها لما كان .

أنا : اتكون الحياة في حاجة الى الموت كذلك ؟

رفيقي : من غير شك. فهي تحيا به . ولولاه لما كانت . والحياة حياتان : حياة نُحييها ، وحياة تُحيينا . ونظرة من عين هرّة كحلاء ، وقد التهبت احشاؤها شوقاً الى ما فيّ من بذور الحياة ، لهديّة تقدّمها اليّ الحياة تفوق كل اثمان الأرض .

أنا : لأنت احذق لساناً من الموت . ولكنك ما قلت لي بعد : ماذا تفعل بالموت اذا جاءك الموت ؟

رفيقي : اموت .

أنا : وبأوجاع الموت ؟

رفيقي : اتحمّلها .

أنا : وبما ينتظرك بعد الموت : افناءٌ هو أم بقاء؟

رفيقي : ذلك من شأن الموت لا من شأني . والذي اقدّره ان موتاً ربّاني لن ينساني .

أنا : امّا انا يا رفيقي فيؤلمني أن أحيا بآلام غيري ، وان يحيا غيري بآلامي . فالألم هو عدوّي وعدوّ الناس الأكبر ، ولعله

المنبه الأعظم من حياة الألم الى حياة لا يطالها الالم . لذلك انشد تلك الحياة . أتحسبني انشد ماءً في سراب ؟

رفيقي : قد يكون السراب أنفع للظمإ من الماء .

أنا : قد يكون . قد يكون . وهل كتبتَ وصيتك؟

***

أفقت في الصباح والقلم بين اصابعي ، ورأسي على المنضدة امامي ، والمصباح ما يزال يشتعل ، وبين شفتيّ هاتان الكلمتان :

اكتب وصيتك !

الأربعاء

انا وشين في خلاف . والاصح انه في خلاف معي . وهو يهدّدني بالطرد . فقد اتفق لي منذ ليلتين ، اذ كنت انظف المكان بعد انصراف الزبائن ، ان عثرت في بيت الخلاء على محفظة نقود ، فوضعتها في جيبي من غير ان افتحها . وفي الصباح الباكر جاء صاحبها وسألني بلهفة اذا كنت قد عثرت عليها . فناولته اياها في الحال . ومن بعد ان تفقّد ما فيها فوجده لم يُمسّ راح يكيل لي الشكر والدعاء . وشاء ان يكافئني بشيء من المال ، فرفضت . ثم راح يقصّ على شين كيف انه كاد يفقد صوابه عندما طلب محفظته ولم يجدها . ففيها خاتم ثمين من

الألماس ، ولؤلؤة نادرة ، وجواهر أخرى ، وكمية وافرة من المال ، بحيث ان قيمتها تفوق ثلاثين الف دولار . وكيف انه فتّش عنها في اماكن كثيرة ، وأبلغ امرهـا للشرطة ، واعلن عنها في امّهات جرائد المدينة . الخ الخ .

مـا كاد صاحب المحفظة ينصرف حتى اقبل شين عليّ يرغي ويزبد ، والشرار يتطاير من عينيه ، وراح يهزّني من كتفيّ هزّاً عنيفاً :

« يا أرقش النحس . لأيّ بلى انت ؟ بمـاذا حشوت رأسك ؟ ليتك بدون رأس . واين وضعت قلبك ؟ ليتك بدون قلب . أنسيت انني خسرت كل مالي ؟ أنسيت انني آويتك واطعمتك وسقيتك ، وما ازال اطعمك واسقيك ؟ يا لضياع تعبي عليك !

« أيرزقنا الله في بيتنا فترفض رزق الله ؟ ايفتح الله لنا باب الفرج فنوصده بايدينا ؟ ومن ادراك يا ارقش الشؤم ان الله ما شاء ان يعوّض عليّ خسارتي بما في تلك المحفظة ، فانتشلتها من جيب صاحبها لتضعها في جيبي ؟ العلّك اعدل من الله ، يا اخسّ خلق الله ؟ قبّح الله هذا الوجه الذي ما رأت عيني بعد اقبح منه .

« ثلاثة آلاف دولار يا ارقش . راحت فكأنها لم تكن . ثم يُنعم عليّ ربّي بثلاثين الفاً فتسلبني انت نعمة الله ؟ ويحك ما كان اجهلك ! ويحك ما كان اشدّ عماك ! أأشفقت على صاحب

المحفظة وهو رجل يكيل المال بالصاع ، ولم تشفق على «معلمك» ويرقبته عيلة كالجراد ، وليس عنده غير خبزه كفاف يومه ؟ لا وربّي . سأطردك ، سأطردك ، سأطردك ! »

لقد ضاعت المثالة على شين . فهي ما تزال تسعى اليه ، وهو ما يزال جادًّا في الهرب منها .

السبت

ايّ قاضٍ مبصرٍ وفهيم وعادل هو القضاء ! فما من شيء في المسكونة ، مهما صغر أو كبر ، إلاّ يمثل لديه في كل لحظة من وجوده فلا ينال منه الاّ العدل كل العدل . يا لذاكرة القضاء ما اوسعها وادقها ، ويا لعينه ما اصفاها وأنفذها ، ويا لوجدانه ما أرهفه وأصدقه !

كلّما فكّرت في القضاء باركت الحياة امّ القضاء ، وقلت لعقلي : اتّئد واتّعظ . فيا ليت قضاة الناس يتّئدون ويتعظون .

الأحد

يساورني اليوم شعور ما اذكر أنّ عرفته من قبل . ولعله الحزن . فكأنّ قلبي غير قلبي ، ودمي غير دمي ، وحركاتي وأنفاسي غير حركاتي وانفاسي . ففي كلها انكماش وارتعاش

وفتور . وكأنّ الأذن ملّت السماع ، والعين ملّت البصر .
او كأنهما تخشيان ان تسمع الواحدة وتبصر الأخرى غير ما تشتهيان ، بل عكس ما تشتهيان .

ثم هنالك ما يشبه الأسف . ولكن على ماذا ؟ لا ادري .
وما يشبه القلق او الخوف . ولكن مماذا ؟ لا ادري . لكأنّ بعضي يرحل عن بعضي ، وكلّ ما يتصل بي من قريب او بعيد قد تقنّع بقناع من شفق حارَ بين النور والظلمة . وهذا القلم يجري بين انامِلي الآن هو قلم حائر لا نار فيه ولا ارادة له .

لقد نبّهني الحزن هذا الى نقيضه الفرح . وانا ما اذكر انني فرحت يوماً كما يفرح الناس . اتراني كنت حتى اليوم فوق الحزن والفرح ، او دون ذاك وهذا ؟ فماذا دهاني اليوم ؟

إستفق ، يا أرقش ، إستفق . انك لفي سبات . أفما عرفت بعد ان الحزن والفرح لِوَاهِي القلوب لا غير ؟ وهل في الكون ما هو جدير بأن نحزن عليه أو أن نفرح له ؟ لا حزنٌ هي الحياة ولا فرح . انها لطمأنينة أبدية . فاطمئن .

الجمعة

خرجت عند ظهر اليوم في قضاء حاجة من حاجات المقهى .

فوجدت الشارع الذي فيه حاجتي والشوارع المجاورة تكتظ بالبشر حتى ليتعذر المرور. والمطلّون من نوافذ البنايات المصعّدة في الجو أكثر من الواقفين على الأرصفة . فكأنهم رِجل من الجراد . والذين على الأرض يتدافعون بالمناكب ، ويشرئبّون بالأعناق ، وكلهم يحاول الوصول الى طرف الرصيف الأمامي. والشرطة تدفع من فاض منهم عن الأرصفة الى الوراء. ولا يندر ان تلجأ الى العصيّ . وما الخبر ؟

إن مَلِكاً من ملوك الأرض العظام جاء البلاد زائراً ، وعمّا قليل يمرّ موكبه من هناك . ذلك كل الخبر ! وذلك ما قذف بتلك الجماهير من أوجارها ، وأوقف دواليب اعمالها ، لتحظى ولو بلمحة من ملك ! امّا ان كل واحد منهم ملك ؛ وامّا انهم يحملون تاج الألوهة على رؤوسهم ، وبصمات الالوهة على أبدانهم ، وسحر الألوهة في قلوبهم وأحشائهم ؛ وامّا ان الأجدر بهم أن «يتفرّجوا» على أنفسهم ليل نهار قبل ان «يتفرّجوا» على ملك او بطل أو بهلوان — فذلك لا يخطر لهم ببال .

ألا أغمضي عينيك أيتها الحرية ، وأشيحي بوجهك عن الناس. ثم لا تعجبي لهم ، ولا تعتبي عليهم ، ولا تدينيهم بجهلهم ، ولا تحرقي شفاههم كلما تلفظوا باطلاً باسمك القدوس . فشفاههم

لا تنطق بها في قلوبهم ، بل بما يتمنون لو كان في قلوبهم .
والذي في قلوبهم هو الرقّ في أخس مظاهره ومعانيه — رق الانسان للانسان . والذي يتمنون لو كان في قلوبهم هو روحك الطاهرة أيتها الحرية الطاهرة ، السافرة ، المقدّسة والمقدّسة .
لذاك يمجدون اسمك بشفاههم ويدوسون جسدك بنعالهم . ولقد رأيتهم اليوم بعينيّ يسحقونك بأقدامهم سحقاً ، وسمعتهم بأذنيّ يهتفون : ليحيَ الملك ! ومعنى ذلك ليحيَ الرقّ ! والموت للحرية ! فهم إذ يهتفون بحياة الرقّ لا يدركون انهم بموتك يهتفون . وهم اذ يسيرون في موكب الرقّ لا يعرفون انهم في جنازتك سائرون .

ليس العبد مَن يباع ويشرى في سوق النخاسة . وانما العبد مَن قلبه سوق للنخاسة .

لذاك سكتّ والناس يهتفون .

الحبيس

لا أدري ماذا طرأ عليّ حتى لا أكاد أعرف نفسي . فما أنفكُّ اسأل نفسي في الزمان الأخير : «من أنا ؟» كيفما انقلبت رأيت هذا السؤال نصب عينيّ . اطرده من جانب

فيعود اليّ من جانب آخر . تضعضعت أفكاري وأصبح التأمل ضرباً من العذاب . هوذا اليوم الرابع وانا كلما حاولت جمع أفكاري سمعت صوتاً يرنّ في داخلي : « من أنا ؟ »

فمن أنا ؟ أنا – أنا . ما أعرفه في هذه اللحظة عن نفسي هو كل ما أحتاج الى معرفته . فالأرقش الذي كان من عشرين عاماً ، والأرقش الذي كان من عشرين جيلاً ، والأرقش الذي كان من ألف جيل قد اجتمعوا في أرقش هذه اللحظة . وأرقش هذه اللحظة ليس بغريب عني . فصوت مَن يسألني : مَن أنا ؟

ما ذاك صوت الأرقش الذي يخدم في مقهى عربي في نيويورك ، ويعيش ساكتاً متأملاً . ولكنّ « أرقش » آخر يسأل نفسه : من أنا ؟

إذنْ أنا أرقشان: واحد انسحب من حلقة البشر والتحف بالسكوت ليتّصل بالعالم الأعلى ويسير معه . وآخر انحجب عن البشر بستار من الأسرار البشرية . وهو يحاول تمزيق الستار ليعود الى حظيرة البشر . فهو من العالم الأدنى ويتوق الى العالم الأدنى . كأنّ بينه وبين هذا العالم حسابات قديمة لا بدّ من تصفيتها .

لذاك نشبت في داخلي حرب لم أشعر بمثلها من قبل .

فعوامل تكاد تطلق لساني من عقاله وتردّ أفكاري الى الأرض وأوصاب الأرض . وعوامل ترفعني الى حياة الفكر المطلق . وأنا بين تلك وهذه أرقش يعرف نفسه وأرقش يجهلها فيسأل: «من أنا؟» وكأنّ الأرقش الثاني قد أفاق، أو يوشك أن يفيق ، من سبات عميق . فهو يودّ أن يعرف من أين جاء ليعود من حيث جاء .

الحرب سجال . فأيّ الأرقشين يغلب ؟

الأحد

تحدّث اليوم بعضي المجهول وبعضي المعلوم . فسأل بعضي المجهول بعضي المعلوم :

«مَن أنت ؟»

فأجابه بعضي المعلوم :

«أنا لا شيء وكل شيء . »

فقال بعضي المجهول :

«ومن أين وإلى أين ؟»

فأجاب بعضي المعلوم :

«من الأزل والى الأبد . »

فصمت بعضي المجهول حائراً . ثم عاد فسأل :

« ومَن أنا ؟ »

فلم يحرز جواباً سوى الصمت العميق . لذلك امتعض غيظاً وكرّر سؤاله بحدّة :

« قل لي من أنا . فأنت تعرف اسراري وأنا اجهلها . »

فبقي بعضي المعلوم معتصماً بالصمت .

عندئذٍ أعاد بعضي المجهول الكرّة بحدّة اشد من ذي قبل وقال مهدّداً :

« قل لي مَن أنا . أو فاطلق سراحي ، وحلّ لساني من عقاله . فقد مللت السكوت . »

فتألم بعضي المعلوم ، وانقبض ، ثم تمتم بحزن لا قرار له :

« أمهلني . ثم يكون لك ما تشاء . »

وبكى .

الثلاثاء

مضى النهار وفكري يحوم حولها . أتنبه فلا ينثني . فكأنه النار تنشرها الريح في الهشيم .

أخذت القلم ، وقد انتصف الليل ، فما انقاد لي القلم .

اطفأت مصباحي وحاولت أن استسلم للنوم فما تسلّمني النوم. وإذا بالظلمة من حولي ترتعش كأنها ملاءة سوداء هزّتها يد خفيّة . وإذا بالتي كنت افكّر فيها تنسلخ عن الظلمة شبحاً أبيض نيّراً وتدنو من فراشي برفق عجيب وخفة متناهية ، وقد تسترت بغلالة من الحرير الأبيض الشفاف ، وبسطت نحوي ذراعيها البضّتين . والجرح في نحرها ما يزال فاغراً فاه ، والحزن في عينيها ما يزال عميقاً ، هادئاً ، رهيباً ، وقد خالطه ما يشبه اللوعة ، بل القلق ، بل اللهفة .

اضطربتُ ولكن من غير ان أقشعرّ . وخفق قلبي ولكنه ما نزل الى اخمصيّ . وجحظت عيناي ولكن ستاراً لم يسدل عليهما . بل وجدتني ، على العكس ، قادراً ان أحملق في ذلك الوجه من غير ان ينحدر بصري عنه الى الارض . لله ما اجمله وما اغربه وجهاً ! كأنه صيغ من اصفى معادن الحبّ والألم لا غير . بل كأنه الحب والألم في تزاوج سماويّ .

سألتها : مَن انت ؟ وماذا تبتغين من رجل وجهه خشبة نخرها السوس ؟ وما كان اشدّ دهشتي ، بل فرحي ، عندما ابصرت شفتيها تتحركان . فأصغيت بكل جوارحي . ولكنني لم اسمع صوتاً. وقد خيّل اليّ في لحظة كانت اقصر من ومضة البرق انني سمعت ما يشبه الصوت ، وما يشبه المقاطع اوّلها

نون وآخرها ميم – نعيم – نديم – نسيم ، او نحو ذلك . لقد كانت لحظة لا غير .

ثم دنت منّي على مهل ، ومن غير ان اعرف ماذا جرى ، وكيف جرى ما جرى ، احسست قبلة على جبيني كانت احرّ من جمرة . فانتفضت . واذ حاولت ان أمسك بها وجدتني قابضاً على الظلمة لا غير . وها انا اكتب ما اكتب ، والعرق يتصبّب من جبيني فلا يطفيء الجمرة المتوقدة عليه .

فكّرت بعد ذهابها في الحبّ – حب الرجل للمرأة . ثم تخيلتني احبّ امرأة كهذه وتخيلتها تحبني . ثم فكّرت في النـاس كيف ينتهي بهـم الحبّ الى الزواج . فيموت حبهم ويموتون . ان الزواج لمقبرة الحبّ . الحبّ يسمو بالمحبّ الى أعلى ؛ والزواج يشدّ بـه الى أسفل . الحبّ يلتهم المحبّ فينشره شعاعاً في الفضاء ؛ والزواج يسحق المحبّ فينثره هباءً في الهواء . الحبّ ذوبان ، فتبخّر ، فانعتاق ؛ والزواج تجمّد ، فتصدّع ، فانشقاق .

كيف يرضى الحبّ ، وهو شعلة من نار ، ان يصبح بالزواج كومة من رماد ؟ ولكن ، ما لي ولمثل هذه التأمّلات ، وهي ابعد ما تكون عن حيـاتي – اليوم وبعـد اليوم حتى آخر الدهر ؟

البحر .

يجذبني البحر في هذه الأيام ولا جذب الثدي للرضيع . وقد ذهبت اليه الليلة وطفقت اناجيه وبي نشوة من عبيره وهديره .

يا بحر ، يا مَهدي ومَهد الحياة ،

يا بحر ، يا صوتي وصوت الدهور ،

يا بحر ، يا فوّارة لا تغور ،

يا بحر ، يا قلبي وقلب الاله !

يا جامع ما انتثر ، وناثر ما اجتمع ،

يا معلم السموّ والوداعة ، والطموح والقناعة ،

يا حامل اوزارنا ، وغاسل اقذارنا ،

يا نقطة في الف ربوة نقطة ، والف ربوة نقطة في نقطة ،

يا نائماً لا يستيقظ ، ومستيقظاً لا ينام ،

يا حالماً ما نحلم وما لا نحلم ،

يا مالك الارض ومملوكها ،

ابديتك لمحة ، ولمحتك ابدية ،

والزمان على صدرك في غفوة الابرار .

يا ليت للناس عيوناً تبصر ما لا يُبصَر ، وآذاناً تسمع ما

لا يُسمع. إذن لأبصروك، يا بحر، وسمعوك فعرفوك وفهموك. وإذنْ لألقوا اليك بأوقار قلوبهم قبل اوقار جيوبهم . ولَسَبَقَت ارواحُهم اجسادَهم الى الاستحمام في طهارتك . فلا الحزن لديك حزن ولا الفرح فرح . فالحزن اذا ما مشى اليك وأوغل فيك عاد ولا أنياب له ولا براثن . والفرح اذا ما تناوَلتْه امواجك النقية ردّته الى الشاطىء بليلاً وطاهراً من الزهو والغرور .

احبّك ايها البحر . احبّ سكونك الثائر ، وثورتك الساكنة . فثورتك ثورتي ، وسكونك سكوني . احبّ زبدك وامواجك . في زبدٌ كزبدك وامواجٌ كأمواجك . احبّ انكماشك وانبساطك . في مثل انبساطك وانكماشك. واحبّ حنينك الأبديّ، فما اشبهه بحنيني !

نحن بحران ايها البحر. ولكن الارقش هو البحر الاوسع والاعمق والأبقى . فأنت يأتيك يوم تتقلص فيه وتنضب. امّا الارقش فلا يتقلّص الاّ لينتشر. ولا ينضب إلاّ ليمتلىء بما لا ينضب . اجل . نحن بحران ايها البحر ، والارقش هو الأبقى .

الأحد

عاد سنحاريب من المستشفى وآثار الجراح ما تزال بادية في

وجهه ، وعينه ما تزال تتهرّب من عيني . لكنني لحظت غير مرة انه كان يحدجني من طرف خفيّ . أمّا انا فقد فرحت لسلامته وعودته ، وما حاولت ان ابيّن له فرحي بحركة او بكلمة . وليتني اعرف سبب كرهه لي .

أليس غريباً ان تحب انساناً ويبغضك ؟ وكنت أعتقد أن المحبة اقوى من البغض ، وان البغض يولّد بغضاً ، والمحبة محبة . فما بال محبتي لسنحاريب لا توقظ فيه محبة لي ، وبغضه لي لا يثير فيّ بغضاً له ؟

الجمعة

عجبت لنفسي لا يُسعدها ما يسعد الناس ، ولا يشقيها ما يشقيهم . العلّني من غير طينة الناس ؟

ها هو هذا المقهى ، على صغره وحقارته ، يكاد يكون معرضاً شاملاً لكل هموم الارض وآلامها ومسرّاتها تحملها اليه في كل يوم شرذمة لا شأن لها في الناس ، ولكنها تمثّل خير تمثيل جميع مشاكل الناس .

هنا تعرض المشاكل الجنسية بأنواعها : من الغرام المتأجج الى رماد الغرام . ومن سكرة الزواج الى صداع الزواج .

ومن شهوة البنين الى التبرّم بالبنين . عناق ففراق . امل فندم . امانة فخيانة . شهد فعلقم . امتداد فارتداد . انتصار فانكسار . تضحيات ونكايات . بركات ولعنات . صلوات وعربدات . وكلها يهرب من النور ولا يأنس الاّ بالظلمات حيث يتراءى له بريق الشهوات كأنه بريق الحياة ، ورمادها كأنه التبر لا تشوب نقاوته ولا ذرّة من التراب . قلوب تتفتّح للملذات فلا تلبث ان تحتلها الآلام . ولحوم تلتصق بلحوم فلا تعتم ان تتهرّأ كلها . ودماء تُضرم النيران في دماء . ثم تخمد النيران فاذا الدماء صديد وصلصال .

وهنا تعرض المشاكل التجارية والسياسية والاجتماعية والدينية بأصنافها — وما أكثر أصنافها : منتج ومستهلك ، صاحب عمل وعامل ، مؤجّر ومستأجر ، اسعار واجور ، ربح وخسارة ، استقامة وغدر ، صدق ونفاق ، نجاح وافلاس ، رخاء وأزمة ، حاكم ومحكوم ، مشترع ومنفّذ ، قاضٍ ومتقاضٍ ، عدل وظلم ، رؤوس وأذناب ، كُتَل واحزاب ، ثورة وجمود ، قلق واستكانة ، شِيَع ومذاهب ، معابد ومصلّون ، آلهة تَرجُم وآلهة تُرجم ، أنبياء يجمعون وأنبياء يفرّقون ، دنيا وآخرة ، جحيم ونعيم ، حياة للفناء ، وفناء للحياة . ومن خلال هذه كلها حراب مسننة من البغضاء

والشحناء ، وحروب لا يُكبَح لها جماح ، ولا يخمد لها أوار؛ فقلوب تُمزّق ، وأرواح تُزهق ، وحيوات تشرق وتغرب وكأنها لا شرقت ولا غربت . وما من سائل يسأل : أمِن اجل هذا كنّا وكانت الارض والسماء ؟

ولو انني ما كان لي من هادٍ غير ما ابصر من حولي وما اسمع لجزمت بأن حياة الناس سلسلة من المشاكل لا غير . وبأنهم قاصرون عن حلّ واحد منها . فمشاكلهم اليوم ما تزال عين مشاكلهم منذ آلاف السنين . وكلما تمادى بها الزمان زادت عدداً ثم زادت تعقّداً . وأي خير في حياة كلها مشاكل في مشاكل ولا امل بحلّ واحد منها ؟ لأفضل لمن كانت حياته كذلك لو انه لم يكن .

الاّ انني ، وانا واحد من الناس ، لا ارى اثراً لأيّ من تلك المشاكل في حياتي . وان يكن من مشكل في حياتي فهو شوقي الى معرفة نفسي لا غير . وانا واثق من ان الذي اضرم هذا الشوق فيّ سيقودني الى الجواب الذي يبرّد شوقي . ان ذلك الشوق هو المخلّص الذي انقذني من مشاكل العالم ، وهو الهادي الذي يمشي بي الى هدفي . ومثلما خلصني سيخلص الناس . وحيث يمشي بي سيمشي بهم . فالانسان للحياة لا للموت . وللمعرفة لا للجهل . وللحرية لا للعبودية .

لكنّ لكل إنسان اوانه . والزمان طويل ، طويل ، طويل .

.

الحبيس

يا طالب الكمال ، نعمًا ما تطلب . فهل أجمل من ان تعرف كل ما تجهل ، فتسود كل ما كان يسودك ، وتقود كل ما كان يقودك ، وتخلق ما تشاء ساعة تشاء ؟ تتخطى الزمان ولا يتخطاك الزمان ، وتحتضن المكان ولا يحتضنك المكان . ان اردت فلا مردّ لما تريد ، او نطقت فنطقك القسطاس والمحجة .

المجد ثم المجد لك . والويل ثم الويل للساخرين بك !

ولكن – لهف قلبي عليك . اجل . لهف قلبي عليك . فطريق الكمال كثير المزالق .

ربّ عين دعجاء أعمت عينك ، ورضاب معسول جفّف رضابك ، ودم ملتهب بالشهوات ألهب دمك . فحدتَ عن طريقك وانت تحسبك ماضياً فيه . وترمّدتَ بنار شهواتك وانت تحسبك مستعراً بشوقك الى الكمال .

والناس من حولك جيوش جاثمة . يرقبون كل خطوة من خطواتك، وحركة من حركاتك، ويحصون عليك انفاسك. حتى اذا ما عثرت عثرة واحدة — وان لم تكن بذات بال — رفعوا عقائرهم شامتين وهاتفين:

« انظروا . انظروا . هوذا طالب الكمال يعثر ويعضّ التراب . لقد ظنّ ان في امكانه الارتفاع عنّا فاذا به يهوي الينا . لقد دعانا عبيد الشهوات ، وها هو يستسلم لشهوة من شهواتنا . ولكم نصحناه فلم ينتصح . وردعناه فلم يرتدع . اما قلنا له انّ للّحم والدم سلطاناً لا يقاوَم ؟ لكنه لم يصدق قولنا . وظنّ انّ في مستطاعه التغلب على اللحم والدم . فليدفع ثمن غروره . »

ليس أبغض على الناس من أن يروا انساناً يُفلت من أقفاصهم ويحلّق بعيداً عنهم . ولا أحبّ اليهم من أن يُصعَق ذلك الانسان فيخرّ صريعاً ، أو أن يُكره على العودة الى قفص من أقفاصهم . لذلك يشمتون بطالب الكمال لدى أول عثرة يعثرها في طريقه الكثير المعاثر .

أما أنا — الرجل الصغير المجهول الذي له وجه كخشبة نخرها السوس — فما سمعت بطالب كمال إلا تمنيت أن أجعل من قلبي بساطاً لرجليه ، ومن روحي سياجاً لقلبه . فاكتال

انسان واحد هو الكفيل باكتمالي واكتمال كل الناس .

أربعة هم الناس :

إنسان جُلّه بهيمة وبعضه إنسان . وإنسان نصفه بهيمة ونصفه إنسان . وإنسان جلّه انسان وبعضه بهيمة . وإنسان كلّه إنسان .

أمّا الأول فما لفكرة الكمال أقلّ سلطان عليه . واما الثاني فيحلم بالكمال ولكنه لا يسعى اليه . وأما الثالث فيحلم ويفكّر ويؤمن ويشتاق ويسعى بكل واسطة لديه . وأما الرابع فقد وصل الى ما وراء الحلم والفكر والايمان والشوق والسعي فلا يغريه تصفيق ولا يؤذيه تصفير . والثالث من هؤلاء الأربعة أحقهم بالتقدير وبالمحبة والغفران . لأنه لا يصارع البهيمة في نفسه لا غير ، بل يصارع كذلك الناس الذين ما برحوا جلهم بهيمة ، والذين نصفهم بهيمة . فهؤلاء لا ينفكون يزرعون في طريقه الفخاخ لينصروا البهيمة فيه على الانسان ، كيما يبقى واحداً منهم وضمن حظيرتهم .

ايها الكمال ما أدناك وأقصاك ، وما أمرّك وأحلاك !

أيها الكمال لا تحصِ عليّ عثراتي .

أيها الكمال ليكن شوقي اليك شفيعاً بي لديك .

الانسان سيد الطبيعة ؟!

انه خَرَفٌ وهذيان .

فالمفروض في السيد أن يسود لا أن يُساد ، وأن يُطاع لا أن يطيع ، وأن يُملي لا أن يُملَى عليه . فأين الانسان – كما نعرفه اليوم – من كل ذلك ؟

لو كان الانسان سيّد الطبيعة لما ناله منها أذى على الاطلاق . وها هو لو شاء أن يحصي يوماً آلامه التي تأتيه من الطبيعة لما أحصاها . ناهيك بالموت وأصنافه وأسبابه . فمن ذرة الرمل الى أقصى الشموس في الفلك ، ومن قطرة الماء الى الاوقيانوس ، ومن أصغر ميكروب الى الفيل ، ومن ألطف نسمة الى أشد إعصار ، ومن أحقر نبتة الى أعتى سنديانة – من كل ما يتصل به من الطبيعة تنهال على الانسان المحن والمصائب والأوجاع بغير انقطاع . فبأي لسان يدّعي السيادة وهو المسود ؟

ثم لو كان الانسان سيد الطبيعة – وهو منها – لكان من الواجب أن يبدأ بنفسه ، فيسيّر أحلامه في الليل ، وأفكاره في النهار حسب هواه . ثم يتحكّم في جسده بطوله ووزنه

وشكله ولونه وحركاتـه وغرائزه . وكذلك في قواه العقلية والروحية والمادية . فـلا يشتهي ولا يفكّر ولا يعمل إلاّ ما يريد ساعة يريد. ما للنعاس ، ولا للجوع والعطش ، ولا للميول الجنسية ، ولا للحقد والغضب ، ولا لليأس والامــل عليه أقل سلطان .

لا . ليس الانسان ، كما هو اليوم ، سلطان الطبيعـة . ولكنه مُعَدّ لان يصبح يوماً ما سيد الطبيعة . وما الطبيعة في الواقـع سوى مرآة الانسان . فألغازها وأسرارها ، وخيرهـا وشرها ، وجمالهـا وقباحتها ليست سوى انعكاسات ألغازه وأسراره ، وخيره وشرّه ، وجماله وقباحتـه . كما يكون الانسان تكون الطبيعـــة من حوله . فمن جملت حياتـه وصفت أفكاره رأى الطبيعة جميلة وصافيـة . ومن قبحت حياته وتشوشت أفكاره رأى الطبيعة قبيحة ومشوشة . لذلك فمفتاح الطبيعة ليس في الطبيعة عينها بـل في الانسان نفسه . وذلك المفتاح هو المعرفة .

من شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أولاً . ومن شاء أن يكون سيد الطبيعة فليكن سيد نفسه .

والوصيّة – وصيّتك – يا أرقش . اما آن ان تكتبها ؟

بلى . بلى . فلنكتب :

يا قلماً يجري على القرطاس . مَنْذا الذي يُجريك ؟

أهي أناملي ، وأناملي تسوقها أفكاري ؟ أهي افكاري ، وأفكاري ترشح من معين الفكر السرمدي؟ سبحان من أجراك .

قد كنتَ لي شفةً وكنت لساناً . ثم كنتَ خير السمير . لكَم عاندتني فصبرتُ على عنادك . ولكَم كبحتُ جماحك فما شكوتَ كبحي . لقد كنت آناً مبضعاً ، وآناً مروداً ، وآونة قارورة بلسم . وقطُّ ما كنتَ ناب أفعى . بك سبرت أعماقي . وبك تسلقت أعاليّ .

لكَم أحسستك عضلاً في قلبي ، ووريداً في دماغي ، ووتراً في قيثارة روحي . أثور فتثور ، وأعصف فتعصف ، وأسكن فتسكن . لكنك من قصب وأنا من لحم ودم . فما كان لنا أن نبوح بأكثر مما يستطيع ان يبوح به اللحم والدم الى القصب ، والقصب الى القرطاس . لذلك اوصي بك للنار . فما يبوح بالنار الا النار .

فاغفرْ ولا تستغفر .

ويا محبرةً ملأتُها من دمي ، فكانت أرفق بدمي مني . إذ موّهتْه بسواد الليل لتحجبه عن الأبصار فيبدو للمتطفلين كما لو كان حبراً أسود لا غير . لله كم سقيتكِ واستقيت منكِ . فلا أنتِ ارتويت ولا أنا ارتويت . وكيف أرويك وأنا عطشان ، وكيف ترويني وأنتِ عطشى ؟ لذاك اوصي بك للبحر . فالبحر لا يرويه غير البحر .

فاغفري ولا تستغفري .

ويا ثياباً كانت لجلدي جُلوداً . شتان ما بينك وبين جلد لفّني به الله من أم رأسي حتى أخمصيّ فكان آية الآيات في دقة الصنع والاحكام والمرونة . يتسع عند الحاجة ويضيق عند الحاجة . فلا يزيد قمحة ، ولا ينقص شعرة . وهو يجدد ذاته بذاته . فيرفأ ما انفتق منه ، ويصل ما انقطع ، ويتنفس بآلاف المناخير ، وينضح من آلاف الميازيب . فيه الصحاري ، وفيه الواحات ، وفيه المروج والغابات .

كان صغيراً يوم كنتُ صغيراً . وصار كبيراً يوم صرت كبيراً . ما فارقني لحظة ، ولا فارقته لمحة . فيه خرجت من أحشاء أمي الصغرى ، وفيه أعود إلى أحشاء أمي الكبرى . والعهد بيني وبينه عهد لا نكول عنه . هو عهد الحياة والموت . فسبحان مَن غزل وحاك ، وسبحان من فصّل وخاط .

وأما أنتِ يا ثيابي فلا أنا أدري ولا المنجّم يدري من نبات ايّ بقاع الأرض أنت ، ومن صوف أي شاء وحملان ، ومن غزل أي مغزل ، وحياكة أي منوال ، وخياطة أي خيّاط . كم لمسَتْكِ يدٌ من قبل أن تلمسي بدني . فأنا إذ ألبسك جلوداً فوق جلدي لا أعرف ماذا أنا لابس من أوصاب الناس وأتعابهم، وبركاتهم ولعناتهم ، ومحبتهم وبغضهم ، وملذاتهم واوجاعهم . مثلما لا أعرف ماذا اودَعَتْكِ الشمسُ والقمر والنجوم ، والبحر والريح ، والضباب والتراب .

ومن ثم فأنتِ يا ثيابي نُتَف لا تربطها ألفة أو محبة ، بل تشدّها رغم انفها خيوط واهية لا تلبث حتى يدب فيها الوهن . فاذا أنت كذلك رهن البلاء لا تنجع في خلاصك إبرة ولا يجدي في شفائك خيط . ولا انسجام بينك وبين بدني ولا هيام . فأنت فضفاضة هنا ، ومنكمشة هناك . آناً طويلة ، وآناً قصيرة . حيناً ثقيلة ، وحيناً خفيفة . ألبسك في النهار وانضوك في الليل . ثم يأتي زمان أنزعكِ فيه لغير ما لقاء .

ولكنك يا ثيابي شربتِ الكثير من عَرَقي ، وسمعتِ الكثير من نبضات قلبي ، وأصغيت الى دبيب الدم في عروقي ، وحملت قسطك من أوزاري . فأصبحتِ بعضاً مني . لذلك أوصي بك للعث ، فليس كالعث ساتراً للعيوب .

فاغفري ولا تستغفري .

ويا عيناً لمحتُ بها الاله . يا آية الآيات ومعجزة المعجزات . يا شاهداً للنور وما هو من نور ، ويا كوّةً يُطلّ منها الروح على الروح وما هي بالروح . تبارك مَن صاغك فأبدع .

تبارك إنسانك لا يتسع لحبة الخردل ويسع كل منظور في الكون ! فالسماء بسُدُمها ومجرّاتها ، وشموسها وأقمارها ، وشهبها ودراريها تجثو عند محرابكِ وتغفو تحت أهدابك . والارض بجبالها وسهولها ، وغاباتها وصحاريها ، وأنهارها وبحارها ، وكل ما دبّ على أديمها وامتطى هواءها تدور على قطبيْك . وألوان قوس السحاب وجميع ما يتفرع عنها من ألوان تعانق وتتراقص وتستحم بماء جفنيك .

طوباك فقد كُحلتِ منذ ولادتك بمروديْن : مِرْوَد الجمال ومرود الشناعة . فلا الجمال بهركِ عن الشناعة . ولا الشناعة اعمتكِ عن الجمال . بل غمرتِ بنورك الاثنين . فعاشا فيك توأمين غير منفصلين . في حين اني ما برحت انصر الجمال على الشناعة . فلا الجمال ينتصر ولا الشناعة تنكسر . ولكم علمّتِني بالمثل والمثال أن حرباً أثيرها بين الاثنين هي حرب اثيرها بين نفسي ونفسي . أما الجمال والشناعة فكانا منذ الازل

في سلام ، وسيبقيان الى الابد في سلام . ولكنني ما تعلمت ولا أدركت . وأكاد اليوم اتعلم وأدرك .

ظلمتك يا عين ظلماً لا يطاق . وحملتك فوق ما تحملين . فما شكوتِ ولا كنتِ من الظالمين . وعل للجهل ان يعدل أو للفهم ان يظلم ؟ كم منظرٍ وقعتِ عليه فتمنيتُ لو كنتُ بغير عين . وآخر فقلتُ يا ليتَ لي ألف عين ! ولا ذنب عليك في الحالين . بل الذنب ذنبي . ما عرفت أن كلَّ ما يغمره النور درجاتٌ في السلّم المؤدي الى النور . وكل ما تتجلى فيه الحياة طريق الى قلب الحياة ، سواء أدعوناه جمالاً أم دعوناه شناعة . وسواء أدمغناه بدمغة الخير ام دمغناه بدمغة الشر . ويا ليت القائلين بأن طريق الحق واحد لا غير ، وبابه واحد لا غير ، يتخذون منك عبرة ودليلا . فأنتِ ما سلكتِ سبيلك الى عالم المرئيّات بشيء منها دون شيء ، بل بسائر الاشياء التي ارتسمت فيك . وانتِ ما ولجتِ عالم النبات من باب الارزة دون العوسجة ، أو عالم الحيوان من باب الغزال دون القرد . بل كان كل ما تقعين عليه في الكون باباً لك الى الكون الذي تبصرين .

لله كم طريقٍ سلكتِ بي يا عين . فكان كأنه الدهر يقطعنا ولا نقطعه . وها انا ما ازال سائراً في طرقي التي لا تعدّ وما

اعلم اين تنتهي وانتهي . ولله كم بابٍ وقفتِ بي امامه فما تخطيتِ بي العتبة . من ذرة الرمل وقطرة الندى الى الشمس في ابراجها والبحر في شطآنه . ومن البعوضة والجعل الى الحوت والانسان . إنها لأبواب مسحورة مرصودة . وها أنا ما أنفكّ اقرعها بقلبي لا بيدي . وما ادري أيُذيبها القلب قبل ان يذوب ، ام تصرعه قبل ان يسمع صرير مصاريعها .

سواكِ يغرق بالدمع حيناً وحيناً يُشرق بالبسمات . وأمّا انتِ فما اذكر ان غسلتك يوماً بملح دمعة او دغدغتك ببريق بسمةٍ . فما أغرب حظك بين حظوظ العيون !

ولكنني ما أضرمت فيك نار شهوة : لا شهوة آدم لحواء ، ولا شهوة الفقير للثروة ، ولا شهوة الوضيع للمجد ، ولا شهوة الموتور لأخذ الثأر . وقد عشنا ما قُسم لنا من العمر حتى الآن في سكون وسلام . وقريباً نفترق . فلا بد للعمر من نهاية . وانا اكتب وصيتي . فلمن اوصي بك يا عين ؟

انني اوصي بك ، بما فيك من عوالم لا تحصى ولا تُحدّ ، وأطياف أحلام لا تُعرف ولا توصف – أوصي بك للدود .

أجل . للدود – للدود – للدود !

فاغفري ولا تستغفري .

ويا أذناً سمعت بها ضميري فكانت مَنفذي الى ضمير

الكائنات . بوركتِ من آلة عجيبة تنقل اليّ كل ما يجول في ضمير الانسان منذ يولد حتى يُلحَد. وكل ما يقوله صغير الطير وكبيرها ، وما يقوله الوحش في براريه ، والسائمة في مرابطها ومراعيها ، والحشرات والهوام في مسارحها ، واوراق الاشجار على اغصانها ، والأعشاب في منابتها ، والرياح والنسائم في اجوائها ، والامواه في مجاريها ، والرعد في مطاوي غيومه ، والأرض في براكينها وزلازلها . امّا انني افهم او لا افهم ما تنقلين فما ذاك من شأنك في شيء . « ما على الرسول الا البلاغ » . وانتِ رسول ونعم الرسول .

لهفي عليكِ فما عرفتِ الراحة لحظة واحدة منذ كنتِ وكنتُ . فأنت رسول لا يهدأ النهار ولا الليل . وقد تحملين اليّ الف رسالة في دقيقة. لكنني بطيء وكسول. وقلّما أقرأ من الف رسالة تأتيني بها اكثر من رسالة واحدة . وحتى هذه الواحدة لا يندر ان أقرأها على عكس معناها الحقيقي. وانت، مع ذلك ، لا تيأسين ولا تتقاعسين ولا تلومين . بل تمضين في عملك دونما كلل او ملل . وتتزاحم فيك الاصوات ناعمها وخشنها ، وخافتها وصاخبها، فلا تضيقين بواحد منها ولا تتأففين.

لو كان لي يا أذن ان أجمع كل ما ولجك من الاصوات في خلال ثلاثة عقود من السنين ، ثم ان أصنع منها شبه قنبلة

صوتية ، ثم ان أطلق تلك القنبلة في الفضاء ، اما كان يجفل لدويّها البحر ، وتصطك الجبال اصطكاك اسنان المقرور ، وترتجف امعاء الهواء ارتجاف امعاء المحموم ، ويرتجُّ كل دماغ في كل جمجمة ، وتنفخت كل طبلة في كل اذن ؟

ثم لو كان لي ان أقتنص كل كلمة سمعتها منذ بداتِ تسعين حتى اليوم ، وان اسطرها بالمداد على القرطاس ، وان أبسط القرطاس على الارض أفما كان يغطي الارض ؟

ولكن واخجلي منك ، ثم واخجلي من الناس، بل واخجل الناس من الناس لو أنهم راحوا يقرأون ما على القرطاس ! فالكلام أكثره كلامهم لا كلامي . وهو كلامٌ فيه للبذاءة والسفاهة والتفاهة والنميمة والشتيمة والفحشاء والمَيْن والمكر والزلفى قصور وحصون . مثلما فيه للهمّ والخرف والقلق عروش وصوالجة وتيجان . وللبغض والحقد والحسد وزراء وجيوش وقوّاد . ومن العدل ان نقول انه لا يخلو من بعض اعشاش للعفة والطهارة والنبل والسموّ والشوق الى الجمال والحق والمحبة .

انه لكلام يتيه فيه العقل ويختبل الخيال ، اذ يختلط صالحه بطالحه ، وصادقه بكاذبه . فتنام فيه اللعنة مع البركة ، ويتزاوج اليأس والامل ، ويتعانق الموت مع الحياة . وانت

ما انت من ضآلة الحجم ، حتى ان طبلتك لا تتسع لكتابة بسملةٍ او حمدلة .

حقاً . انك لآلة عجيبة يا أذني ، وانك لمستودع غريب . والاعجب منك والاغرب هو الارقش الذي يسمع ما تسمعين وما لا تسمعين . والارقش يكتب الآن وصيّته . ولمن عساه يوصي بك ؟

للدود — للدود — للدود !

فاغفري ولا تستغفري .

وانتِ يا أمعاء الارقش وأحشاءه وأعضاءه ، ويا مفاصله وعظامه ، ويا جلده وشعره، ويا رقعة من خشب نخرها السوس هي وجهه . انتِ يا رجليه ويا يديه ، ويا لسانه وشفتيه ، ويا اظافره وأسنانه ، ودماغه ودمه . لست أدري ايّك الاهم والاعظم والاعجب في بناء حياةٍ هي حياة الارقش . وكيف ادري وانا البناء وساكن البناء ؟

يا له من بناء كل ما فيه حركة لا تهدأ وحياة لا تنام . ثم يا له من ساكن يشغل كل ما في البناء ويظنه شاغلاً حيّزاً ضيّقاً منه لا غير . فهو اذ يشتغل بيديه او رجليه او فكره ينسى ما تبقّى من جسمه . في حين ان ما تبقّى من جسمه لا ينساه ، بل يثابر على القيام بوظيفته دون انقطاع . فما من

شعرة او ظفر او خليّة او قطرة دم الاّ تعمل عملها في الليل والنهار . وأعمال الكل تنسجم انسجاماً يفوق حد التصوُّر في عمل واحد هو عمل الجسم الحي .

لله كم مشيتَ بي ومشيتُ بك يا جسدي . ومن يستطيع ان يحصي المسافات التي قطعناها ؟ وكم هضمتَ من خيرات الارض والسماء ، وهضمَتِ السماءُ والارض من خيراتك . وكم تنفستَ من الهواء ونفثتَ في الهواء من انفاسك . ولو كان لي ان اجمع انفاسك لا غير لخلقتُ منها الاعاصير والزعازع . ولكننا ما خُلقنا يا جسدي لنخلق الاعاصير والزعازع بل لنجعل منها نسمات بليلات منعشات .

وها انا اكتب الآن وصيتي . فلِمن عساني أوصي بك ؟

للدود — للدود — للدود !

فاغفر ولا تستغفر .

وانتَ يا قلب —

. . . . .

يا قلب يا قلب — —

. . . . .

يا قلب يا قلب يا قلب — — —

. . . . .

يا نبضة الخالق في المخلوق ،

يا مجمع الآزال والآباد ،
يا مَرْكب الاحزان والافراح ،
يا فوّارة الانوار والظلمات ،
يا مِرْتَخَمَ الهمّ والالم ،
يا سرير الـ « آه » والـ « اوّاه » ،
يا مهد الحياة ولحد الموت ،
يا مذبح الشوق ومحراب الامل ،
يا حظيرة الاوهام ومسرح الاحلام ،
يا جعبة الشك ودرع اليقين ،
يا صنّاجة الساعات والاعوام والقرون ،
يا دليل العميان والمبصرين ،
يا أذُن الامس ، وعينَ اليوم ، وبصيرة الغد ،
يا عُشّاً يبيض فيه السّلم فتحضن الحربُ ما يبيض ،
يا إناء الرحمة ومنجنيق النقمة ،
يا فضاء لا يُحدّ عنـد الفرج ، ويا سُمّ الخياط عند الضيق ،
يا مصحفاً قرطاسه الدم ، ومداده الدم ، وحروفه الدم ،
يا قارورة الاله وقاذورة ابليس ،
يا قيثارة غصّت بألحانها ،
يا جائعاً لا يشبع ، وظامئاً لا يرتوي ،

يا قزماً يصرع العمالقة ، وعملاقاً تمزّقه الاقزام ،
يا عابداً إلحاده صلاة وصلاته إلحاد ،
يا ناسكاً في صدر ناسك
يا قلب   يا قلب   يا قلب — — —

. . . . .

يا قلب   يا قلب — —

. . . . .

يا قلب —

. . . . .

للدود ! — للدود ! — للدود ! —

. . . . .

. . . . .

. . . . .

لقد اشتريتَ آثامك بآلامك .
مغفورة آثامك . ومباركة آلامك .

الثلاثاء

لقد كان من الخير لك يا أرقش الخير أن كتبتَ وصيتك.

فلولاها لما عرفت ايّ الغنى هو غناك . وكنت تحسبك لا تملك شيئاً . فاذا الأكوان بأسرها تسعى اليك وتحيا بين جنبيك .

ولو انك كنت تعرف الحسد لكان جديراً بك ان تحسد نفسك لا غير . ولكنك لا تعرف الحسد . وثروتك فوق ما تستطيع حصره الارقام . وعمرك ، مهما طال ، لن يستهلك منها مقدار ذرة من جبل . أنقول إن الذي اعطاك ما اعطاك كان مسرفاً في اعطائه ، او كان جاهلاً فما وازن بين قدرتك على التمتع وبين قدرته على العطاء ؟ إذن هو أحمق من غير شكّ . وذاك قول اعيذك منه يا ارقش .

وانما انت الأحمق يا ارقش تظنّ انّ مَن وهبك الأكوان لم يهبك سوى ثلاثة عقود من الأعوام لتفهمها والاستمتاع بأجسادها وارواحها . وما ادراك انه لم يهبك الابدية اذ وهبك الكون والحياة ؟ ثم من ادراك أنّ غفوةً تغفوها وتدعوها الموت ليست محطة من محطات عمر يمتد من الازل والى الابد ؟ وكيف للازلي والابديّ ان يفهمه ما كان غير ازليّ وابديّ ؟

قرّ عيناً يا أرقش . فوصيّة تكتبها اليوم في هذا الجانب من قبرك ستبدو لك مهزلة في الجانب الآخر منه . وستشحذ غفوة الموت قابليتك على الاستمتاع بالوجود فتستفيق منها وبك

نهم جديد الى حياة جديدة، ما لما تستفيق من غفوة ليلتك وبك اشتياق الى النهار الآتي .

الجمعة

لو انكشفت لك كل اسرار الكون يا أرقش ما خلا سرّ الارادة الخلّاقة لبقيت ريشة في شدق عاصفة هوجاء واعشى في جوف ليلة ليلاء .

السبت

خذها يا أرقش الذقن والانف والوجنتين . خذها رسالة كريمة من رسول كريم ومثالة بليغة من استاذ بليغ .

لقد تماديتَ في الغرور حتى ظننتَك طاهراً من كلّ عيب ونقيّاً من كل جرثومة تحمل في قلبها الفساد! وحسبتَ انك خادعتَ القضاء فأنت في مأمن من الوجع . وها هي ضرس من اضراسك تسلبك لذة النوم والطعام والتأمل من غروب الشمس حتى شروقها ثم من شروقها حتى غروبها . وما تكتفي بذلك ،

بل تشوّه وجهك المشوّه ، فتنفخ خدّاً دون خدّ ، ويمتدّ الورم الى عينك فيكاد يطفئها .

ثارت عليك ضرس من اضراسك فبعثرت افكارك ، وهدّت أعصابك ، وعاثت بأحلامك ، واستنفدت صبرك ، وشلّت ارادتك ، واذلّت كبرياءك ، وصرفتك عن كل همّ غير همّها . فكأنها من جسمك الباء والألف ، ومن فكرك المحور والقطر والدائرة . بل كأنها - وما هي غير عظمة زهيدة في فكك - ثعبان بألف فكّ وفك يمتص دماغك ، وينخر اعصابك ، وينفث سمّه في مجاري دمك ، ويلتف حول قلبك فيعصره عصراً . فتستغيث ولا مغيث - غير كلاّبة الاسنان !

أليس من المضحك المبكي ان يستغيث من ضرسه مَن فكره لا يني يستنطق الارض والسماء عن اسرارهما ، وخياله لا ينفك يرود الآزال والآباد ، ومَن جسده مركّبٌ عجيب من امور عجيبة اقل ما فيها حفنة من فتيت العظام منضّدة في شكل اسنان واضراس ؟

اليس من العجب انّ من يروّض السباع ، ويفتّت الجبال ، ويمتطي العاصفة ، ويقهر اللجّة ، ويسخّر البرق ، يعجز عن أن يروّض ضرساً من اضراسه فلا تثور عليه وتنتقم منه وتتركه فريسة للوجع الذي لا يطاق ؟

أليس جديراً بالتفكير يا أرقش ان ضرساً ساهمت في بنيان جسمك واحسنت اليك خير الاحسان كل هذه السنين تضرب اليوم عن المساهمة في البنيان وتنضمّ الى معسكر الهدم ثم تنقلب من خير محسن الى شرّ مسيء ؟ اعندك اقلّ الشك في انك قد اسأت اليها ؟ ولكنّك تجهل كيف اسأت اليها ومتى واين . لذلك جاءك الوجع يعلّمك ما تجهل . فانت الذي قضيت على نفسك بالوجع . وكان قضاؤك في يدك ، وانت تلوم القضاء .

أين ارادتك الخلاّقة يا ارقش تنتهر السوس في ضرسك فيكفّ عن النخر ، وتزجر افكارك فتنصرف عن الوجع الى الراحة ، وتأمر ضرسك فتعود ضرساً سليمة سويّة ؟

ما دامت ارادتك قاصرة يا أرقش عن ان تسيّر جسدك حسب هواك فاعلم انّ بينك وبين المعرفة التي تنشدها نجاداً ووهاداً كل فتر منها مفروش بالحيرة والوجع . وانت لو كانت لك المعرفة التي تنشد لما اكلت أو شربت ، ولا نويت او فعلت ، ولا تخيلت او اشتهيت ما من شأنه ان يجلب السوس الى ضرسك ، والوجع الى رأسك ، وأن يُحدث اقلّ خلل في التوازن العجيب ما بين جوارحك ، وخلايا لحمك وعظمك ، وقطرات دمك . ولكنك ما تزال جاهلاً وايّ جاهل يا أرقش . وشوقك

اللافح الى المعرفة لا يكفيك وحده حصناً ضدّ الالم . لا ولا يكفيك التأمل. وصيانة اللسان ، وكبح جماح اللحم والدم ، وترويض القلب على العفة والقناعة والتسامح . كل هذه من مخففات الالم . ولكنها ليست بالسور المنيع الذي لا يقتحمه الالم . اما ذلك السور فالمعرفة .

حيثما الجهل ، يا أرقش ، هنالك الالم . فالالم هو النذير والبشير، وهو المعلّم والمقوّم لقوم يعقلون .

وايّ نفع لك، يا ارقش، من الالم يلقي عليك دروساً ولكن من بعد فوات الوقت – من بعد ان يودي السوس بضرسك ؟

وقت الدرس كلّ وقت . ودرسٌ لا تنتفع به الآن ستنتفع به فيما بعد .

إن يكن الالم معلّماً للمتألّم ، يا ارقش، فما نفع المحتضر من آلامه ، وحياته توشك ان تنتهي ، والفسحة التي بينه وبين اللحد أقصر من ان تتسع للانتفاع بمثالة الالم ؟

انّ في ذلك وحده لعبرة بالغة للذين يعتبرون . فالالم شجرة ثمارها المعرفة . والمعرفة زاد يتزوده المتألم من يومه لغده، مثلما يتزود المسافر من نهاية مرحلة لبداية مرحلة اخرى .

معلّم بليغ هو الالم في كل ما يلقيه على الناس من دروس ما بين المهد واللحد . أتظنه يفقد رشده وبلاغته ويُبتلى بالخرف

حالما يبلغ بالناس حافّة القبر، فيروح يلقي عليهم دروساً لا نفع منها البتة ؟

وزاد طيّب هي المعرفة المعصورة من الالم . أتظن ان الحياة التي كانت حكيمة الى أقصى درجات الحكمة في كلّ ما زوّدت به المحتضر في سفراته ما بين الولادة والاحتضار تفقد حكمتها عند احتضاره، فتزوّده لغير ما حاجة ولغير ما سَفَر ؟

وما ادراك انّ المحتضر ليس على سَفَر وأنّ آلامه في هذه الناحية من القبر ليست زاداً له في الناحية الاخرى من القبر؟ بل لو لم يكن الامر كذلك لما كان لوجودك يا أرقش او لوجود ايّ انسان واي شيء اقلّ معنى. وايّ معنىً لحياة يحدها موت لا معنى له؟

أنقول ، اذن ، يا ارقش : « اهلاً وسهلاً بالالم » ؟

لا . لا . بل نقول : « بُعداً للألم . » فما وجهه بالوجه المستحبّ ، ولا مذاقه بالمذاق المستساغ .

أيكون الالم صديقك وعدوّك في آن معاً يا ارقش ؟

اجل . اجل . ولكنني ما صادقته الاّ لأعاديه ، ولا قرّبته الاّ لأقصيه ، ولا اطعمته الاّ لأفنيه . ويا ليت الناس ينسون كل عداواتهم الاّ عداوتهم للألم . ويا ليتهم يُقلعون عن كل حرب غير حربهم مع الالم . ومعنى ذلك : يا ليتهم يطلبون المعرفة من الالم ليعودوا فيقبروا الالم بالمعرفة .

ولكن الناس عميان . فهم يحاربون القدر . واقدارهم منهم وفي أيديهم . الا انهم لا يعلمون .

الاربعاء

صلّ ، يا ارقش ، صلّ . فهذه البلبلة في رأسك وقلبك لا يزيلها الا الصلاة .

ومن أين تلك البلبلة في رأسك وقلبك ، يا ارقش ، حتى كأنّ رأسك غير رأسك ، وقلبك غير قلبك ؟ أيسطو عليك طيف عابر فيسلبك اتزانك ، ويحتلّ وجدانك ، وينزل في حبّة قلبك ، فأنت لا تملك من امرك معه غير الخضوع والخشوع والاستسلام ؟

ولكنه طيفٌ ولا كالاطياف. طيف فتاة في غلالة ارجوانية تسيل من كل خيط من خيوطها فتنة الانوثة البكر ، وبمثل السحر تتغلغل في بدني ، فأحس حرارتها تدبُّ في كل قطرة من دمي ، وفي عظمي وجلدي ، وفي اجفاني وأهدابي ، وفي كل جارحة من جوارحي . ثم أحسبا موجات تلطمني من كل جانب ، وما تزال بي حتى تغمرني من أمّ رأسي حتى اخمصيّ . واذا بي لهيب ووجيب – وشهوة جامحة بأن احرق الفتاة ثم

احترق واياها بنار واحدة وفي أتُون واحد ، وان نحيا الازلية والابدية في لمحة واحدة .

القامة قامتها ، والوجه وجهها ، والشعر شعرها ، والنهدان نهداها ، والكفّان كفّاها . وكذلك النحر نحرها . الاّ انه لا أثر فيه لجرح او لدم . بل هو العاج المصقول . وامّا عيناها فهما هما . ولكن الحزن فيهما قد تقنّع بأنوثة تفوح منها شهوة التفتّح والاكتمال .

ما ادري كيف برَزَتْ لي من غضون الظلمة وكيف لمستني فأوقدت النار في أحشائي . ولا ادري بماذا خاطبتها وخاطبتني . ولا اذكر بأية قدرة وجدتُني جاثياً عند قدميها . والذي اذكره هو انها مسحت عينيْ بكفّيها ثم نشرت امامي وريقة مطويّة قرأت فيها العبارة التالية :

« ذبحتُ حبي بيدي لانه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تتشاقه روحي . » ثم ابتلعتها الظلمة .

ويا ليت الظلمة ابتلعتني معها . اذ قد سلختني عن نفسي . فأنا اليوم غير أنا .

صلّ ، يا ارقش ، صلّ .

شين اليوم في همّ جديد . وهمّه الجديد هو زواج بنت من بناته . وهي الثالثة بين اربع اخوات – اثنتان منهن عانسان وقد فات وقت زواجهما . اما هي فما شاءت ان يكون حظها حظّ اختيها الكبيرتين . لذلك لم تتردد قطّ في قبول اول « نصيب » جاءها. واول نصيب جاءها رجلٌ ترمّل عن صبي وابنتين . وقد سبقها الى هذا العالم بعشرين سنة . ويكاد يكون مقعداً عن العمل لضعف في أعصابه وكبده وكليتيه . اما ثروته فتنحصر في انه ذَكَرٌ يليق في نظر التقاليد الاجتماعية ان يكون بعلاً لأنثى .

ذلك ما عرفته في هذا الصباح من شين اذ كنت واياه وحدنا . فابتدرني بقوله :

« خزاك الله يا ارقش، وخزى زماناً ضاع فيه قدر الوالدين وراح الاولاد يتصرفون بحياتهم على هواهم فلا يطيقون أدنى تدخّل من قبل الام والاب. فها هي بنت من بناتي تهمّ بالزواج من رجل غريب لا نعرف أصله من فصله . فلا تستشيرنا في الامر . بل تفصّل وتخيط كما تريد كأننا لسنا بموجودين . واذ نستقصي الخبر ونعرف ان الرجل ارمل وشبه مقعد نزجرها

ونردعها عن الزواج بـه تشتمنا وتنددنا بالجهل والبربرية . ثم تقلب شفتيها استخفافاً بنا وتمضي في استعدادها للزواج كأنّ الامر لا يعنينا بكثير او قليل . والانكى من كل ذلك انها لا تأنف من ان تطلب المال مني او من والدتها . فما قولك دام فضلك؟»

واذ لم يسمع مني جواباً عاد فقال ثانية :

« خزاك الله . فأنت لا للحـرب ولا للسلم . ولا للمشورة ولا للتنفيذ . لا للفرح ولا للضيق . ولولا انك اخرس لرضيت بك زوجاً لابنتي ، ونسيت انك ارقش . ولكنك اخرس . »

وبعد فـترة من السكوت والتأمل : « وقـد يكون الاخرس العازب خيراً من المقعد الارمل. أترضى بابنتي زوجاً لك ان انا رضيت بك بعلاً لها ؟ »

* * *

حلّ ، يا ارقش ، حلّ . حلّ من أجل شيْنٍ. وأي الناس ليس شيْناً فيما يتعلق بالزواج ، وتقاليـد الزواج ، ومراسم الزواج ؟ بل فيما يتعلق بسائر التقاليد والمراسم التي تواضع عليها الناس ؟

ربّ كتاب قتل كاتبه . وربّ خالق صرعه مخلوقه .

والناس تقتلهم تقاليدهم وتصرعهم مراسمهم من حيث يدرون ولا يدرون .

الأحد

مضى اسبوع كامل وسنحاريب لم أرَ له وجهاً . فقلقت عليه اشدّ القلق من غير ان اعرف سبباً معقولاً لذاك القلق . فلا الرجل صديقي او نسيبي . ولا هو يبدي نحوي درهماً من العطف الذي اكنّه له في قلبي . بل اراه على العكس ينفر مني وينظر اليّ نظرة اشمئزاز وضغينة .

ومما زاد في قلقي على سنحاريب حديثٌ سمعته عنه منذ يومين بين اثنين من زبائن المقهى . قال احدهما :

« ما لسنحاريب انقطع عن زيارة المقهى ، وقد كان لا تفوته ليلة واحدة من ليالي البوكر فيه ؟ أتظنّ انه أفلس من المال لكثرة خسارته ؟ فأنا ما رأيته يربح الا نادراً جداً . »

فقال الآخر :

« أفلس ؟! لعلّ الثعالب تفلس من البراغيث والمروج من الجنادب قبل ان يفلس سنحاريب من المال . لا تخدعنّك ظواهره . فالرجل من كبار الاثرياء . ولأمرٍ لا أفهمه ولا يفهمه احد يتظاهر بالفقر . انه لسرّ عميق . بل هو مجموعة اسرار . »

الاول : لو كان الامر كما تقول لما سكن غرفة زريّة في أحقر حيّ من أحياء المدينة .

الثاني : بل الامر كما اقول. اما عرفت انه ابتاع سيارة من افخم السيارات ؟

الاول : وما حاجته الى سيارة وهو لا متاجر عنده ولا عيال ، ولا يهمه الزهو واللهو ، والثياب التي على بدنه لا تكاد تصلح لسائق سيارة ، فكيف برب سيارة ثري ؟

الثاني : قلت لك إن الرجل لغز . أتدري لماذا اختار هذا المقهى من بين كل المقاهي في حين انه من اصغرها واحقرها ؟

الاول : ولماذا ؟

الثاني : لأن الارقش يخدم هنا .

الاول : وما علاقته بالارقش ؟

الثاني : وهذا لغز كذلك . لقد قال لي مرة ان له ولعاً عظيماً بدرس اطوار الناس ، وبالاخص من كان بهم شذوذ كالارقش .

الاول : ولكنه ، على ما يبدو لي ، يكره الارقش .

الثاني : بل هو معجب به ، عطوف عليه . ولكنه يتظاهر بالكره له كيلا يحس الارقش أنه يدرسه .

الاول : امر غريب .

الثاني : اجل ، غريب . والدنيا مليئة بغرائب الامور .

الاول : وما سبب انقطاعه عن زيارة المقهى ؟ هل تعرف ؟

الثاني : لا اعرف . لعله لاهٍ بتمرين سيارته الجديدة . او لعله نزل به حادث من حوادث السيارات الكثيرة . او لعله سافر الى مكان مجهول ولن يعود . اما اذا كان باقياً في المدينة ، وكان سليماً ومعافى ، فسنراه قريباً من غير شك .

***

وهكذا كان . فقد اقبل علينا سنحاريب بعد ظهر اليوم ومكث حتى منتصف الليل .

كنت واقفاً بالباب عندما درجت سيارة فخمة الى الرصيف ، وكان يقودها بيده . وعندما ترجّل ودخل ذهلت لمنظره مثلما ذهل شين وزبائنه . فقد كان مرتدياً بذلة رمادية غاية في دقة الصنع والاناقة . وكانت يده اليسرى في قفاز من الجلد الابيض الناعم وفي قبضتها قفاز اليد اليمنى . وكان شعره مصقولاً لامعاً ، ووجهه مشرقاً ومدلوكاً بأثمن ما تعرفه حوانيت المزينين من المساحيق . وكان يتضوع منه عطر لطيف منعش ، ما ان تنشقته حتى شعرت كأنّ برأسي دواراً ، وكأنّ المقهى تحوّل قصراً منيفاً ، وكأنني اعرف ذلك القصر وكل باب من ابوابه ، ونافذة من نوافذه ، وكل قطعة من رياشه وزخارفه .

والاغرب من ذلك انني ما ان وقعت عيني على سنحاريب في زيّه الجديد ، وفي سيارتـــه الجديدة ، حتى شعرت كأنني

عرفته من زمان ، وكأنه كان ألصق بي من قميصي ببدني . امّا اين كان ذاك ، وكيف ، ومتى — فلا اذكر .

اقول « لا اذكر » وقد كادت رائحة العطر المنتشرة من سنحاريب تذكّرني . وها هي تلك الرائحة — وقد اقفر المقهى من سنحاريب ورفاقه منذ ساعتين — هـا هي تدغدغ أنفي وتعبث بأفكاري . فآناً تدنيني ، وآونة تقصيني . ومـا تنفك تغريني وتعذبني كأنهـا الكلمة الضائعة في تلافيف الدمـاغ . نحسها على الشفاه وعلى اللسان؛ نحس أحرفها ونكاد نسمع وقعها ، ولكنها تعصى علينا فنعجز عن سكب أحرفها في كلمـة وعن استعادة وقعها في مقاطع. ومن بعد ان نملّ ونكلّ ونقلع عن التفتيش تأتينا عفواً وبدون اقل عناء .

ولعل الرائحة التي فاحت عليّ اليوم من سنحاريب فكادت تذهلني عن كل امر عداها — لعلها تفتح الباب المغلق عليهـا في دماغي من غير اقل عناء مني . ولعل ذلك البـاب اذا انفتح انفتحت من بعده ابواب وابواب . فما ادري لماذا رحت أشعر في هذه الايام كما لو كانت في رأسي ابواب كثيرة موصدة ولكنها توشك ان تنفتح .

وأمر آخر من الغرابة بمكان . ولا شك ان له مغزاه . الا انني اجهل مغزاه . ذاك ان سنحاريب قبيل انصرافه وانصراف

باقي الزبائن عند منتصف الليل دخل حجرتي خلف الحاجز الخشبي دونما سابق انذار او استئذان . وكنت جالساً الى منضدتي ، ورأسي بين كفيّ ، وفكري يحاول خرق الحجب التي امام عينيّ. فما سلم عليّ ، ولا التفت اليّ . بل راح يتفحص الحجرة كمن يفتش فيها عن ضائع ، أو كمن يدرس أشياء في متحف . وبعد دقائق خرج مثلما دخل .

ما كنتَ لجوجاً فيما مضى يا أرقش . فلا تكن لجوجاً الآن .

الاثنين

اليوم فهمت قصد سنحاريب من دخوله حجرتي الليلة البارحة . ففي هذا الصباح أبصرت خلف الباب وريقة بيضاء مطوية . فرفعتها وفتحتها . وماذا قرأت فيها ؟ قرأت :

« ذبحت حبّي بيدي لانه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي .»

يا إلهي ! يا إله الصمّ والبكم والمتوحّدين ! يا إله الألغاز والاحاجي ! ايّ لغز هذا اللغز ؟ ايّة أحجيّة هذه الاحجية ؟

ما لي ولهذه العبارة تأتيني بها «هي» منذ ايام، ثم يأتيني بها سنحاريب أمس ؟

ثم ما أغرب ان تكون الورقة التي جاءني بها سنحاريب عين الورقة التي جاءتني بها هي - بلونها ، وحجمها ، وطيّاتها . والأغرب من ذلك ان الخط هو هو ، وانه يشبه خطي شبه التوأم للتوأم .

يكاد رأسي ينفلق كلما فتشت عن حل لهذا اللغز . ألعلّني كنت حالماً في الحالتين ؟

ثب الى رشدك يا أرقش . ما كنت حالماً آنئذٍ ولا أنت حالم الآن . ولكنها ظلال احداث تزحف عليك من غياهب ماضيك . وما من حدثٍ يزحف عليك إلا بدعوة منك وإلا لحاجة ملحّة في حياتك اليه . فبينك وبينه صلة الجاذب بالمجذوب والواصل بالموصول . ولولا ذاك لما جاءك البتة .

اما خطر لك ان تسأل نفسك لماذا جاءتك هذه الورقة ولم تجيء أحداً سواك ؟ أما ترى انها جاءتك لانك جذبتها اليك ؟ فاقبلها شاكراً ، وتفحّصها مليّاً . لئن غاب عنك معناها اليوم فلا بد من ان ينجلي لك في الغد .

ثب الى رشدك يا أرقش . واثبت . ثم لا تكن لجوجاً . ودع الايام تتمخض في أوانها عن كل كبيرة وصغيرة في أرحامها .

فأنت لن تستقدمها لحظة ولن تستأخرها لمحة . ولك من يومك شاغل عن غدك .

الثلاثاء

اليوم عيد – عيد العمل . والارقش عامل . ولكن العيد ليس عيده .

وأي يوم هو عيدك يا ارقش ؟ أنت وحدك بين كل ما في الارض من آدميين لا عيد لك . بل انت وحدك كل يوم من ايامك عيد . أليس أن كل يوم ينفحك بخيالات جديدة ، وأحاسيس جديدة ، ونِعَم لا نفاد لها ؟ وهل العيد الا ان تستمتع ولو بنعمة واحدة من نعم الوجود التي تفوق العد والاحصاء ؟ امَّا نِعَم الوجود جميعها فمَنذا يستطيع ان يستوعبها في يوم واحد ، أو عام واحد ، أو عمر واحد ، بل في الف عمر وعمر ؟ إنها لأكثر من ان تسعها عين أو أذن أو أنف ، أو جيب أو بطن .

وأعياد الناس ، مع ذلك ، هي أعياد عيون وآذان وانوف وجيوب وبطون . هي كل ما من شأنه ان يصرفهم بقلوبهم وافكارهم واجسادهم عن النعمة التي لها يعيّدون ، سواء أكانت

تلك النعمة مولد رسول أم موت نبي ام استشهاد وليّ ، أم نعمة كالتي يعيّدون لها اليوم—وهي نعمة العمل وما يخلقه العمل .

لقد كان الاقبال على المقهى منقطع النظير . فمنذ الصباح حتى نصف الليل ونحن نودّع زوّاراً ونستقبل زوّاراً . وجيب شين تنتفخ اكثر فأكثر ، وعيناه تضحكان أعلى فأعلى ، ولسانه يقرع أسنانه وسقف حلقه أسرع فأسرع وأشدّ فأشد. فالعيد عيده . أو هو بالاحرى عيد جيبه وعينه ولسانه . اما نعمة العمل الخلاّق فلا هو ولا أحد من زبائنه جاء على ذكرها ولو بكلمة عابرة . بل كان كل ما عمله وفاه به ، وكل ما عملوه وفاهوا به ، كفراً بتلك النعمة ونكراناً لها . لانه كان هدماً لا بنياناً ، وكان محقاً لا خلقاً ، وكان قتلاً للنفس لا حياة .

يا نعمة المحراث والمعول والمنجل ،

يا نعمة الكور والسندان والمطرقة ،

يا نعمة الفأس والمنشار والازميل ،

يا نعمة المغزل والخيط والمنوال ،

يا نعمة الشاقوف والشاقول والزاوية ،

يا نعمة القرطاس والحبر والقلم ،

يا نعمة تغزو معاقل الغاب والتراب فتسيّر السفن في الماء والهواء ،

يا نعمة تلجم البرق فتجعله مطيّة للفكر وسراجاً للعين ،

يا نعمة العمل الخلاق – يا اكبر نعمة ! ألا اعذري الناس وجهل الناس . اعذري العامل منهم وغير العامل ، والمجتهد والكسول ، والمتفائل والمتشائم ، والمؤمن والملحد ، والمبذّر والمقتّر . واعذري حتى الذين يترفعون عن العمل ولا عذر لهم الا انهم يرون في اي عمل حطّاً من كرامتهم وشيْناً لسمعتهم . اعذريهم جميعهم ،فهم اذ يتمتعون بك لا يعرفون حتى اليوم بأية نعمة سماوية يتمتعون .

لكم سمعت الناس يقولون : ليتنا كالنبات في الحقل او كالطير في الهواء . وليتنا كالسباع في البراري وكالاسماك في البحار . ألا تبّ ما يشتهون . أتكون لهم نعمة العمل الخلاّق ويتمنون لو كانوا لا يعملون ؟ أما عرفوا انها النعمة المثلى التي خُصّ بها الانسان دون باقي الكائنات ، وانها السلّم التي بها يرقى الانسان الى الله – من كائن مقدرته على الخلق حدود الى كائن يخلق وما لمقدرته حدّ او نهاية ؟

اما عرفوا ان العمل الخلاّق هو الصلة الاقوى والابقى بين الانسان والكائنات ، وبين الانسان والانسان ، وانه البوتقة التي فيها ينصهر كل الناس في كل انسان؟ فالناس ، على كثرتهم ، جسدٌ واحد وروح واحد هما جسد الانسان الامثل

وروحه . واعمالهم ، على وفرة انواعها ، عمل واحد . هو عمل الانسان الامثل .

ها اناذا الأرقش المجهول، الملتفّ بالصمت، العامل في مقهى عربي حقير في بابل القرن العشرين — ها اناذا لو شئت ان اكافىء كل العاملين في سبيلي من الناس لما عرفت بماذا اكافىء ومَن اكافىء .

بماذا اكافىء الذين زرعوا وحصدوا فأكلت؛ والذين نسجوا وخاطوا فاكتسيت ، والذين خلقوا الحروف والمطابع والورق فتعلمت وقرأت وكتبت ، والذين زحزحوا ظلمة الليل فاستنرت ، والذين سيّروا السفن والعجلات فانتقلت من مكان الى مكان ؟ وما لي اعدّ العاملين في سبيلي وهم لا يُعدّون ؟ فبأي لسان اقول بعد ذلك إن جسدي غير أجساد الناس وروحي غير ارواحهم ، والعمل الخلاّق قد مزج لحمي ودمي بلحومهم ودمائهم ، وأفكاري ومشاعري بأفكارهم ومشاعرهم ؟ فلا لساني لساني وحدي . ولا عيني عيني وحدي .

ايها الضاربون في الأرض وجهاً وبطناً ،
الوائدون ايّامهم وأحلامهم في الظلمات والفلوات ،
الناثرون بسماتهم ودموعهم على مفارق الطرق ،
المرضعون أمانيهم من دماء قلوبهم ،

المطعمون من عضلاتهم جياع الصخر والشوك ،
الباذرون اشواقهم في المحابر واقواس السحاب
الناشرون اعمارهم على الأمواج والرمال ،
يا سجناء اقفاص المصارف والمصانع ،
الدافنون ابصارهم واسماعهم في بطون السجلات ،
والمذيبون ادمغتهم ارقاماً حمراء وسوداء ،
يا مَن اغانيهم صرير الدواليب وهدير المطامع ،
ورقصتهم رقصة الفلس والدينار -
ايها العاملون كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، مهما يكن عملكم وحيثما قضت الاقدار ان يكون — ههنا عامل حقير في مقهى حقير يمدُّ لكم يده ، ويفتح قلبه ، ويعرف قيمة العمل فيبارك ما تعملون .

وما هي قيمة العمل ؟

هي اعمار تنحسر عن اعمار ، وآمال تمهد السبيل لآمال ، وأهداف تتصل بأهداف . فلا انقطاع في العمل الخلاّق حتى يكون للانسان ما يشاء من الانطلاق في الخلق والابداع دونما قيد ودونما حدّ .

وعمل يمتدّ منذ ان كان الانسان وتتشابك أجزاؤه تشابك الخيوط في النسيج ، اما خيوطه فحيوات تنطوي على حيوات ،

لعَمل لا يثمَّن بمال او عقار . فهو فوق كل الأثمان . وما كان لا يثمَّن بمجموعه كان كل جزء منه اثمن من ان يثمَّن . واي انسان ليست حياته بعضاً من عمل الانسانية الشامل ؟

فوا أسفي على النـاس يقيمون أثماناً متفاوتة لكل شيء ، ولكل عمل ، ولكـل انسان . واذ تعبث بها الحياة التي لا تثمَّن والتي تأبى الحصر في الجداول والمعادلات والمعاهدات ، تضطرب قلـوبهم ، وتتشوّش أفكارهم ، وتتوتر أعصابهم ، وتستيقظ أحقادهم ، وتفلت شهواتهم من زرائبها ، فتغلي مراجلهم ، ويفور ما فيها من خساسة ورجاسة . واذا الذين يعملون معاً عمل الانسانية الخلاّق ينسون انهم لهدف واحـد يعملون فيتقاتلون ويتطاحنـون ويتذابحون . واذا المنجل سيف ، والمعول بندقية ، والقلم مدفع ، والحبر بارود ، والكلام رصاص . واذا العمار دمـار ، والنور ظلام ، والحيـاة موت أحمر .

لو ألقت البشرية مقاليدهـا اليّ لجعلت منهـا جيشاً واحداً منظماً كأحسن مـا تنظم الجيوش ، ومدرّباً خير تدريب ، ومسلّحاً بأفضل مـا استنبطه الانسان حتى اليوم من الأدوات والآلات والحيل لتسهيل معيشته على الارض . ولأعلنتها حرباً شعواء على الأرض فوصات قاصيها بدانيها ، وجعلت مجاهلها

معالم ، وذلّلت جبالها ووعورها وصحاريها ، وفجّرت ينابيعها فكسوت عاريها بالغاب والبساتين والرياحين ، ولقّحت عقيمها بالخصب ، ونثرت في أرجائها المزارع والدساكر ، ومحوت الحدود منها والسدود ، وقلت لأبنـــاء الأرض : « امرحوا وامرحوا وكلوا واشربوا من طيبات مـا خلقت ايديكم . لكم الغُنْم وعليكم الغُرْم . وأنتم في الاثنين سواسية . ومـا دمتم جنوداً في خدمة العمل الخلاّق وتحت لوائه فلا يهتمّنّ احد بماذا يأكل ويشرب ويكتسي واين يسكن . فذلك كله موفور لكم بفضل القوة الخلاّقة فيكم وبفضل حنوّ الأرض والسماء عليكم. »

وعلامَ لا يكون الناس جنوداً يحارب بعضهم في سبيـل بعض بدلاً من ان يحارب بعضهم بعضـاً ؟ وعـلامَ لا تكون الخدمة اجبارية فتطول وتقصر ، وتمتد ساعات العمل في النهار وتتقلص حسبما تقضي الحاجـة ؟ ثم عـلامَ لا ترافق العاملين ، اينما كانوا ومهمـا كان عملهم ، المدارس والمصحّات والموسيقى وكل أسباب الترفيه والتشجيع والتوجيه الذي من شأنـه ان يعظّم العامل وما يعملُ ؟ وعندما تتحد ايدي الناس وأفكارهم وقلوبهم في عمل واحد ، ثم يُنفَق نتاج ذاك العمل بالمساواة على الجميع مثلما تُنفَق مؤونة الجيش على الجنود ، فأي مبرّر بعد للتزاحم والتحاسد والتكالب والتناهش ؟

الاّ ان الناس لا يعقلون. ولذلك يتنابذون ولا يتعاونون، وعلى فضلات مـا تخلقه ايديهم من بركات الأرض والسماء يتقاتلون .

يا نعمة العمل الخلاّق – يا اكبر نعمة . أعذري الأرقش واعذري الناس أجمعين . واجعلينا بخيراتك جديرين .

الجديس

ما هذه السكرة التي سكرتها الليلـة وبأي الكلام أصفها ؟ انها لتجلّ عن كل وصف . ألا ليتني لم أصحُ منها .

وبماذا وكيف سكرت ؟ – لستُ ادري .

لعلّها مـا يدعونه « غبطة الوجود » انسكبت عليّ بغتـة انسكاب أشعة الشمس على كرة من البلّور . فأحسستني كياناً شفافاً مترعاً حرارة ونوراً . فـلا انا من لحم ودم . ولا انا سجين زمان ومكان . ولا انا انا . فكأنّ الكائنات منظورها وغير منظورها قـد ذابت فيّ وذبت فيها . فالشمس والقمر والنجوم منّي وانا منها ، وهي فيّ وانا فيها . ومثلها الأرض بكل ما على سطحها وفي جوفها وجوّها من الغرائب والعجائب.

الكل ذوب لا يوصف من محبة لا توصف . والشعور بتلك المحبة لا ينقاد الى تعريف او تحديد . انه الغبطة بعينها . بل هو الغبطة فوق كل غبطة . غبطة لا يحلّق اليها فكر ، ولا يطالها خيال ، ولا تعلق بأذيالها اشباح هموم او شكوك او غموم .

ذُهلت عن نفسي فما أعرف أدقيقة طال ذهولي ام ساعة ام دهراً . ويا ليته كان ذهولاً لا نهاية له .

ولو انني ما عشت من حياتي غير تلك الدقيقة لاكتفيت بها حياة كاملة .

ولو ان حياتي ما كانت غير طريق مفروش بالشوك يؤدي الى تلك الدقيقة لرضيت بها وباركت ربّ الحياة الذي متعني بها .

تباركتِ حياةٌ جمالها يذهل الانسان عن نفسه .

وما أدراك يا أرقش الخير انّ ذهولاً طرأ عليك الليلة فتذوّقت فيه « غبطة الوجود » ليس بشيراً بذهول اطول فأطول وأعمق فأعمق حتى تبلغ الذهول السرمديّ ؟

اللّهم ، اذهلني عن نفسي !

السبت

اذا كان الفرق عظيماً بين شيئين شبّهوه بالفرق بين الأرض

والسماء . والفرق بين ما انا فيه اليوم وبين ما كنت فيه منذ يومين لأعظم من الفرق بين الأرض والسماء .

كنت في ذهول عن الأرقش فتذوّقت « غبطة الوجود » . وانا اليوم في ذهول عن كل ما في الوجود الا ّ الأرقش فلا اتذوّق غير الحيرة والمرارة .

لله ما اوسع الانسان وأضيقه ، وما أبعد مداه وأقربه ، وما اسرع فكره وأبطأه !

كأنني اليوم اضطراب وتشويش وقلق . ولو سألني سائل عن السبب لما أحَرْت جواباً .

لكأنني حفنة من القمح والحسك والتراب تصفّقها يد المغربل في الغربال . او كأنني القِدر ليس فيها غير الحصى ومن تحتها نار مشبوبة السعير .

كنت في ما مضى اذا تعكّر صفو عزلتي عزوته الى انقسام في نفسي ما بين أرقشين – أرقش معلوم وأرقش مجهول . واليوم كأنني أرقش مجهول . بل لو شئت ان أعدّ كل ما فيّ من أراقش مجهولين لما استطعت . فهم يطلّون عليّ من نوافذ لا تحصى . وليس بينهم وجهان متشابهان . ولا هم يكلّمونني بلسان واحد ولغة واحدة . ولا انا أفهم ما يقولون وما يطلبون . فكأنني القلعة المحاصَرة . وكأنّ هؤلاء الأراقش

جيش لا توحّدهم قيادة ولا هدف . وكل جندي يحاول ان يقتحم القلعة عنوة ويحتلّها قبل سواه . فالأمر ما بينهم فوضى وهم في سباق .

وماذا تبتغون من هذه القلعة ايها المحاصِرون ؟ وماذا تظنونكم واجدين فيها من بعد ان تقتحموها وتحتلوها ؟

انكم لن تجدوا في خراباتها غير الخراب . ولن تظفروا من مواقدها بغير الرماد . امّا اللّهيب فما يزال في سبيله الى الله .

ستجدون فيها حفنة من السنين تقمّطت بظلمة ماضٍ كفيف وبريق آتٍ مبصر . فلا هي عتمة ولا هي نور . ولا هي معرفة ولا هي نكرة . ولعلها عتمة تستنير ، ونكرة تتعرّف . اما اسمها فالارقش .

هاجموا ، هاجموا . فإمّا تدكّون حصوني او ادكّ حصونكم .

الجمعة

وحدي .

أجل . وحدي وما من بشر غيري على وجه البسيطة .

لقد فني الكل ، واصبحت الأرض مقبرة هائلة لبني الانسان .

فأقفرت مساكنها ودروبها وحقولها من كل من يدبُّ على رجلين ويحتال على معاشه بفكره ولسانه وخياله .

لا أم تحبل وتلد وترضع ، ولا طفل يحبو ويلثغ ويبكي ، ولا أب يعمل ويجني ويبني .

لا سفينة في البحر والجو ، ولا سيارة او قطار او قافلة على اليابسة .

لا عابد في معبد ، ولا طبيب في مستشفى ، ولا دارس في مدرسة .

لا فأس في غابة ، ولا منجل في كرم ، ولا معول في حقل .

لا دخان معمل ، ولا قرقعة دواليب ، ولا صفير صفّارات .

لا شاعر ينظم ، ولا رسام يرسم ، ولا كاتب يكتب .

لا من يبكي ، ولا من يضحك ، ولا من يغني .

لا من يبيع ولا من يشتري .

لا من يزاحِم ولا من يزاحَم .

لا من يضارِب ولا من يُضارَب .

لا من يحارِب ولا من يحارَب .

لقد فني الكل ولم يبقَ غيري شاهداً بفنائهم . وما افنتهم الزلازل ، والاعاصير ، او الوحش ، او الحشرات ، او المجاعات . وافنتهم الحروب والاوبئة التي تولّدها الحروب .

لقد افنام التهالك والتكالب على خيرات الأرض . وها هم قد قضوا جياعاً وعطاشاً وعراة . قضوا ممزقين بأطماعهم ، مشويين بأحقادهم ، مترمدين بشهواتهم . والأرض ما تزال تفور بالبركات لا تستنفدها الفصول والدهور وربوات الراضعين من درّها الحنون . وهي هي – الأم الرؤوم ، المطعمة بنيها من لحمها ودمها بغير حساب ، المرنمة في اذن الأبد ترانيم الأزل ، السالكة سبيلها النيّر ما بين القوافل النيّرات ، الحاملة اثقالها في الفضاء بمثل الطمأنينة التي تحمل بها العصفورَ في الهواء ، المستسلمة ابداً عن فهم وعن رضى للمشيئة التي كوّنتها رحماً رحبة ولقّحتها بلقاح الحياة .

وهذه الأرض هي اليوم ميراثي وحدي . فماذا عساني أن أصنع بما ورثت ؟

ماذا عساني أن اعمل بذهب الارض وفضتها، وألماسها وياقوتها ، وبما تنبته من حبوب وبقول ، وفاكهة ولحوم ؟ واراني لو كانت لي أيدٍ وأفواه ومِعد وعيون وانوف بغير عدٍّ لما استهلكت غير اليسير اليسير من زادها . فكيف بعبيرها ومحبتها وجمالها ؟ وهل في الكون ما يستطيع ان يستهلك عبير الارض ومحبتها وجمالها ؟

ألا انهضوا من لحودكم ايها الملحِدون . لقد كفرتم بالأرض

وما كفرت بكم الأرض . وها هو الأرقش ، وقد اصبح الوريث الأوحد من بني الانسان للأرض ، يتنازل لكم عن ميراثه . خذوه ولا تقتسموه . فهو للكل لا للبعض .

فانتم متى اقتسمتموه اقتسمكم . فكنتم ميراثه بدلاً من ان يكون ميراثكم . وكنتم زاده بدلاً من ان يكون زادكم . كلوا واشربوا واشبعوا لا بما تمضغه أسنانكم وتستوعبه بطونكم لا غير بل بما تمضغه أسنان اخوانكم في الناسوت وشركائكم في الأرض وبما تستوعبه بطونهم . فليس أمضّ من جوع الذي لا يشبع الا اذا جاع جاره . ولا اقسى من عطش الذي لا يرتوي الا اذا عطش شريكه في الماء . ولا أمرّ من موت الذي يحاول ان يحيا بموت مَن جعلته الحياة دعامة لحياته . وأي الناس ليس دعامة لحياة كل انسان ؟ انما تحيون بعضكم ببعض . فكيف لا تحيون بعضكم لبعض ؟ وانما ترضعون كلكم الحياة من ثدي الأرض . فكيف لا تخجلون من ان تمزقوا الثدي الذي منه ترضعون ؟

وحدي !

ومن حولي خرائب المدنيّة المنكوبة ببنّائيها . ويا لها من خرائب عامرة بالذكريات ، آهلة باشباح الفقر والترف ، والذل

والصلف ، والحزن والفرح ، والايمان والالحاد ، والاستسلام والعناد ، والولادة والموت ، والقناعة والجشع ، واللذة والوجع .

خرائب صمّاء ، بكماء ، عمياء ، وكانت تسمع بملايين الآذان ، وتنطق بملايين الألسن ، وتنظر بملايين العيون . فكأنها ما سمعت غير الموت ، ولا نطقت بغير الدمار ، ولا ابصرت غير الفناء . وكان حريّاً بها ان تسمع الحياة ، وتنطق بالعمار ، وتبصر البقاء .

لقد ذلّت العاتية ، وها هو انفها في الرغام .

لقد انسحقت المتجبّرة ، وها هي ابراجها السامقة تعانق التراب .

لقد انفضحت الفاسقة ، وها هي وعشاقها طعام للدود .

تشقّق جسد العاهر وتفسّخ وتفشّت فيه البثور والدمامل ، فسال منه الصديد ، وانتشرت روائح النتن والفساد . فواعجباً للنسيم لا يَتَنحَمّ ، وللأرض لا تتقيأ أمعاءها !

اختنق صوت الغانية في حنجرتها ، وتشعّث المزمار الذي كانت تسحر بأنغامه روّاد حاناتها . فواعجباً للشمس لا تنظم المراثي ، وللبدر لا ينثر الدموع !

انكسرت القوس وتحطّمت السهام التي خلقتها المغامرة

الكبرى لتصطاد بها الهناء لأبنائها فما اصطادت لهم الا الشقاء .
فواعجباً للطير والوحش والسائمة لبست في عيد وفي مهرجان
وقد شُلّت اليد التي وُجدت لتبني الحياة فما كان يغريها شيء
مثلما يغريها عدم الحياة في الأحياء .

انطوت المدنيّة الفاحشة وطوت عشّاقها في أحضانها .

ناموا ايها العشاق ، ناموا . فأنتم لفرط ما ابتليتم به من
العشق ما تذوّقتم بعد لذّة النوم .

ناموا ، وأريحوا الأرض منكم واستريحوا . فأنتم لفرط ما
اجهدتم الأنفس في إرضاء معشوقتكم ما عرفتم بعد طعم الراحة .
انما الأرض أحنّ عليكم منكم . ولكنكم ستنهضون من نومكم
الطويل عارفين قيمة الأرض ومعنى اليقظة .

ناموا ، ناموا في التراب . عساكم تسمعون وتفقهون ما
يبوح به التراب للتراب .

ناموا ، حيث الديدان لا تشبع ولا تنام . لعلكم تجوعون
الى غير ما يجوع اليه الدود وتشبعون بغير ما يشبع .

ناموا ، ناموا مكفّنين بالصمت والظلام . لعلكم تدركون
ما في الصمت من وحي وما في الظلام من نور .

ناموا ، ناموا ، فالأرقش الذي لا ينام يدهد نومكم بالأغاني .

ناموا ، ناموا ، ناموا . . .

ولكنّ قشعريرة تمشي في بدني اذ أتخيّلني الآدمي الأوحد على وجه الأرض . لقد أحببت عزلتي وسكوتي يوم كان من حولي بشر أعتزلهم وألجم لساني عن مكالمتهم . أما وقد أصبحت وحدي ولا شبيه لي في الأرض من جنسي فعزلتي انقلبت وحشة وسكوتي سجناً ووجودي غربة . لا . ما احسست مثل هذه الغربة من قبل . كنت أراني غريباً عن الناس وقريباً من كل ما في الطبيعة . واليوم أراني غريباً عن كل ما في الطبيعة وقريباً من الناس .

أهي العادة ؟ أهي العين وما ألفت ، والأذن وما ألِفت ، والأنف وما ألِف ؟ لست أدري . ولكنّ الأرض ليست أرضاً بغير الانسان . فهي كالبيت يعجّ بالأولاد يلعبون ويتصايحون ويتشاجرون ويعبثون بكل ما في البيت . فتشعر انه بيت يفيض حيوية وحياة . اما اذا أقفر ذلك البيت من الأولاد فكأنه اقفر من الحياة .

لا . ليست الأرض أرضاً بدون الانسان يعبث بما فيها اذ يعبث بنفسه ، ويخاصم وينازع ويحب ويكره ويبني ويهدم . فالناس اولاد الأرض الذين ما ادركوا رشدهم بعد . فلنحاسبهم على قدر مداركهم لا اكثر .

وحدي ؟

ومعي الليل وما يلفه الليل ، والنهار وما ينشره النهار ، ومعي الايمان برب النهار والليل ، وبنفسي ، وبالانسان المتطلع أبداً الى ما هو أبعد من الانسان .

***

ما أعرف كيف خطر لي الليلة ان اتخيّل انقراض الجنس البشري من الأرض. والغريب ان ذلك الخيال تسلّط عليّ الى حدّ انه لم يبقَ في استطاعتي التخلص منه . فكان ما كان وكتبت ما كتبت .

والآن وقد افلتُّ من قبضة ذلك الخيال أعود فأسأل نفسي : مِن أين جاءني وهل يمكن ان يأتيني شيء من لا شيء ؟

ما أدراك يا أرقش ان ما تخيلته الآن ليس حقيقة مرسومة في خريطة الزمان الآتي، وان قوة كامنة فيك كمون الشرار في الحجر ما اخترقت حجب الزمان البعيد فكشفت لك ما كشفتْ وأوحت اليك بما أوحت ؟ وهل من مبرّر لاعتقادك واعتقاد سواك أن الأرض ستبقى مسكن الانسان الى الأبد ، وان الانسان سيبقى انساناً الى نهاية الزمان ؟

الثلاثاء

سألت نفسي اليوم :

« ماذا تريدين يا نفسي ؟ »

فأجابتني :

« اريد ان اعرف . »

فقلت :

« وماذا تريدين ان تعرفي ؟ »

قالت :

« كل شيء . »

قلت :

« ولماذا تريدين ان تعرفي كل شيء ؟ »

أجابت :

« لأنني أريد ان اتحرر من كل شيء . »

قلت :

« ألا تكون حرية بغير معرفة ؟ »

قالت :

« بل تكون عبودية . »

قلت :

«ألا تكون حياة بغير حرية ؟»
قالت :
«بل يكون موت .»

الأربعاء

سكوتٌ مثمر

الخميس

سكوتٌ قاحل

الجمعة

سكوتٌ واجم

الاثنين

خرجت اليوم بعد نصف الليل قاصداً البحر . وما ان ابتعدت عن المساكن المأهولة وبلغت عطفة مظلمة في الطريق حتى أدركتني سيارة ترجّل منها اثنان ووثبا عليّ ثم راحا يوثقان يديّ بحبل كان معهما . واذ سألتهما ماذا يريدان مني أجابني أحدهما بصوت خشن خافت : «نريدك أنت . واياك ان

تنبس بكلمة . » واتفق ان سمعا هدير سيارة تقترب منا فتركاني وشأني ثم هرولا الى سيارتهما وانطلقا بسرعة الريح . وكانت السيارة تشبه سيارة سنحاريب .

ربي وإلهي ! سمعت وقرأت عن اللصوص وقطّاعي الطرق . هل ضاق بهم عيشهم فلا يتسع لهم الا اذا ضيّقوا العيش على سواهم ؟ وهل بلغ بهم الفقر ان يطلبوا الغنى من ثروة مَن كان في مثل فقر الأرقش ؟

حقّاً ان عالم الناس لعالم غريب عجيب .

الأحد

يا شفقاً لفّني بغلالة بيضاء — سوداء ، فلا أنا في النور ولا أنا في الظلام . لا أنا نهار متوهج ولا أنا ليل دامس . تباركتَ من شفق ، وتبارك السحر سحرك .

بربك قل لي ايها الشفق : أمحتوم على الأرقش أن يكون همزة وصل بين الليل والنهار ؟ أما من ظلمة لا نور فيها ، أو نور لا ظلام فيه ؟ إذن ، ما هذا الصوت الصارخ في اعمق اعماق وجداني بأنني لا بد بالغ يوماً لا يحتويني فيه نهار او ليل بل اكون أبعد من متناول الاثنين ؟

لقد لمحت وجهكِ ايتها الحرية فعميت . وشممت طيبك

فسكرت . ووجهك من نور ترتد عنه كليلةً عين النهار . وطيبك من مسك ما تعطّر بمثله قلب الليل . ومَن لمح وجهك مرةً واحدة حجب عينيه عن كل وجه آخر . ومن تعطّر بطيبك مرة واحدة سدّ انفه دون كل طيوب الارض .

خذي بيد الأرقش أيتها الحرية وانتشليه من قبضة الليل والنهار

السبت

ضاع كل شيء . . .

ضاع الأرقش . . .

ضاعت عزلته المؤنسة ودنياه الفسيحة الحافلة بالرؤى .

ضاعت المعرفة التي ينشد وحلّت محلها المعرفة التي لا تعرف ، ولا تعرف انها لا تعرف : معرفة الناس لأحسابهم وانسابهم ومراتبهم ومطامعهم ونُظُمهم وتقاليدهم .

اليوم « عرفت » مَن أنا — أين ولدت ، ومَن ولدني ، وما اسمي ، واين عشت ، وماذا فعلت ، وبمن اتصلت ، ومن احببت وابغضت من الناس . . .

تذكرت . ويا ليتني ما تذكرت . . .

ما كان أسعدني أيام نسيت كل ذلك !

ما كان أقوى جناحيّ ايام لا ماضٍ يشدني الى أسفل ، ولا

ذكريات تسمّر فكري وقلبي بالتراب !

ما كان أفسح عالمي أيام حدوده الأزل والأبد ، وايام أنا روح هائم بالروح السرمديّ !

أمس كان هذا المقهى أرحب من الأرض والسماء . واليوم السماء والأرض أضيق من هذا المقهى .

مات الأرقش الحي وبعث الأرقش الميت . مات الأرقش الحي منذ ان تذكّر الأرقش الميت، قام شكيب فنام الأرقش.

تبّاً لها من ذاكرة لا يموت فيها شيء !..

قد ينسدل الستار على القليل او الكثير منها ولكنه لا يمحو نقطة مما وراء الستار .

مهما يكن الستار كثيفاً وثقيلاً فلا بد من يوم ترفعه فيه عين اليد التي سدلته. اما «الوسيط» فقد يكون كلمة عابرة أو شيئاً تافهاً .

و «الوسيط» في رفع الستار المنسدل على ذكريات ماضيّ ما كان أكثر من مقال في عدد من جريدة اسبانيولية وجدته اليوم على طاولتي فقرأته . ولا شك في ان يد سنحاريب وضعته هناك .

اليوم «عرفتك» يا سنحاريب . عرفتك كما يتعارف الناس . وليتني ما عرفتك . ليتك بقيت في ضميري سنحاريب الذي عرفته في هذا المقهى — لا اكثر .

قتلتني يا سنحاريب .

قتلتني يا اخي ويا صديقي ويا رفيقي سليمان .
طرحتني من حالق . فانا الآن مرضوض العظم والعصب والفكر والقلب واللسان .
أيقظتني من غفلة واعية الى يقظة غافلة .
أأقول : قاتلك الله ؟ بلى . بلى . قاتلك الله يا قاتلي .
لا . لا . بل سامحك الله على قدر محبتي لك وكرهك لي .
وأي الذنب ذنبك وانت إنسيّ كباقي الناس ، وأنا جنّي وانسيّ معاً ؟ وهل للانسي ان يفهم الجنّيّ ؟
كيف للانسيّ ان يفهم لماذا يذبح الجنّيّ حبه بيده؟
ذبحتها ، ذبحتها ، ذبحتها ...
ذبحت حبي بيدي. فما شأن الناس معي ؟..
ولكنك تضع العِرض فوق الحبّ يا سليمان ، وأضع الحب فوق كل شيء .
وقد ثأرتَ لعِرضك . وأي الثأر ثأرك ؟
نبشت الأرقش من قبره ثم طعنته في الصميم !
أما الأرقش فمن يثأر لحبه ؟
ومن يثأر الأرقش لنفسه الا من نفسه ؟
أنا الذابح والمذبوح . ذبحتها فانذبحتُ .
بيدي ، بيدي هذه ذبحت حبي . لأنه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي . وأي الناس أدرى مني بما يتحمله جسدي وما تشتاقه روحي ؟ فما شأنهم معي ؟

ارفعوا عني اكفكم ، واحجبوا الحاظكم ، والجموا ألسنتكم .
ارتدّوا ، ارتدّوا .
ما مات الأرقش بعد . لا . ما مات الأرقش .
أين سهامكم ؟ أين بارودكم ؟ أين رصاصكم ؟
قم يا أرقش ، قم ، ولا تهولنّك كثرة الجيوش .
قم واصرخ بهم : هاتوا سهامكم وبارودكم ورصاصكم . اني ضباب تدرّع بالضباب . فان استطعتم ان تصرعوا الضباب بسهامكم وبارودكم ورصاصكم ربحتم المعركة . والا فالنصر لي . ولكم الخيبة والهزيمة .
لا تولولي يا اماه . لا تنح يا أباه .
وارقصي يا قطرات دم زكي أرقتها بيدي .
ترنحي يا أحشاء الأرقش برقصة الدم المعطار .
وارقص ايها الحب بعدلك للأرقش أو عليه .
للأرقش الذابح
وللأرقش المذبوح
للأرقش المترمد
وللأرقش الملتهب
ايها الحب ارقص بعدلك .

« انتهت مذكرات الأرقش »

تكملة

جريمة لا سابقة لها في الجرائم

عريس يذبح عروسه في الليلة الاولى من شهر العسل
أهي الغيرة أم الجنون أم ماذا ؟

ترجمة المقال الاسباني المذكور في الفصل الاخير من مذكرات الارقش والمؤرخ في ٢٦ حزيران ١٩١٦

«روّعت العاصمة في صباح اليوم بخبر جريمة ولا كالجرائم. ولعلها الاولى من نوعها . ونرجو ان تكون الأخيرة .

لقد ألفنا أخبار القتل والنهب والانتحار. أما ان يذبح شاب عروسه بيده، وفي الليلة الاولى من شهر العسل، وأن يذبحها من فرط حبه لها ، فأمر ما سمعنا بمثله ولا قرأنا عن شبيهه من قبل .

في ضاحية x من ضواحي العاصمة جالية سورية — لبنانية لا يستهان بها . فيها التاجر الثريّ ، والصناعي القدير ، والمحامي والصحافي والطبيب . ولها على الضاحية أيادٍ بيضاء . فقد ضربت بسهم كبير في تعميرها ورفع شأنها بين ضواحي العاصمة .

ومن أبرز الأسر شأناً وأوفرها ثروة وأعرقها نسباً في تلك الجالية أسرتا نعمان وحاريب . وبين الأسرتين روابط صداقة

قديمة ومتينة . اما الأولى فتتألف من والد ووالدة ووريث
وحيد في ميعة الشباب ، هو السيد شكيب . والمعروف عنه
انه آية في حدّة الذهن والذكاء ، فقد انهى دروسه الجامعية
بتفوّق ادهش رفاقه وأساتذته . ولكنه غريب الأطوار الى
حد بعيد ، وعلى جانب عظيم من حسن السيرة والسريرة .

وأما اسرة حاريب فقوامها ارملة وولداها : السيد سمعان
ن . حاريب والآنسة نجلا حاريب . والسيد سمعان مهندس له
شهرته . وهو ما يزال في عنفوان العمر . وبينه وبين السيد
شكيب نعمان اخوّة يندر ان تجد لها مثيلاً حتى بين أخوين من
لحم واحد ودم واحد .

وكان من هذه الأخوّة ان تقرّب شكيب من نجلا وتقرّبت
منه . فكان حب وكان هيام . وكانت خطبة وكان زفاف .
وكان فرح عظيم في الأسرتين ومهرجان كبير في الجالية .
والآنسة نجلا ، بشهادة الذين عرفوها في الحياة والذين أبصروها
في الممات ، تحفة من تحف الجمال النادرة في الأرض .

واختار العروسان ان يمضيا الليلة الاولى من شهر العسل
في فندق y وهو أفخم فندق في العاصمة . ثم كان الصباح فما
خرجا من غرفتهما . وكان الظهر فما رآهما أحد في مطعم أو في
صالون . وكان المساء كذلك . وقد اعتادت ادارة الفندق ان
لا تزعج عروسين جديدين في غرفتهما . ولكنّ شكاً بدأ

بخامرها في امر السنيور شكيب والسنيورة نجلا عندما كادت الليلة الثانية ان تنتصف ولم يسمع احدٌ لهما صوتاً .

فأرسلت الادارة مَن يطرق الباب عليهما، ولكن بغير جدوى. عندئذ أرسلت في طلب الشرطة ، ورجال الشرطة أمروا بفتح الباب عنوة. وإذا بهم يفاجأون بجثة العروس ملقاة على السرير في غلالة حريرية بيضاء. والغلالة والسرير مضرّجان بالدم. واذا بالعروس مذبوحة من الوريد الى الوريد. أما العريس فما وقعوا له على أثر ما خلا ورقةٌ صغيرة خُطّت عليها العبارة التالية :

« ذبحت حبي بيدي. لانه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي. »

وقد تبين من الفحص ان الخط خط شكيب نعمان . اما حقائب العروسين ومجوهرات العروس فلم يُمَسّ منها شيء .

ورجال التحري وكذلك شقيق القتيلة السيد س . ن . حاريب دائبون في التفتيش عن العريس . ولا شك عندهم في انه القاتل . ولكنهم حتى الآن ما اهتدوا الى سبب معقول للقتل . فلا أثر لغيرة ، ولا لخلاف ، ولا لخصام . بل كل القرائن تدل على ان العروسين كانا على جانب عظيم من الأمانة والاخلاص المتبادلين ومن التعلق واحدهما بالآخر .

حقاً انها لجريمة تحيّر حتى رجال التحري . وسنوافي القراء بما نلتقطه من أخبارها في حينه » اه .

الى الارقش

الآن ، وقد مسحت قلبي من مذكراتك يا أرقش ، تتراجع بي الذاكرة اثنين وثلاثين عاماً الى الوراء ـ اثنين وثلاثين لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً . فأراني وحدي أطوف شوارع مدينة ليست مدينتي ، وفي بلاد ليست بلادي . والليل فاحم القلب ، مُصقع النفَس ، نديّ العين . وقد التفّ بعباءة كثيفة من الضباب . فلا نجم يغامز نجماً ، ولا كوّة يطلّ منها ولو شعاع ضئيل من النور .

كنت أمشي على غير ما هدى والى غير ما هدف . ولا عصا في يدي أتحسّس بها طريقي في الظلام . لقد كانت عيناي مفتوحتين ، اما قلبي فكان مغلقاً ، وكان كمن يفتش ولا يعرف عمّاذا وأين يفتش . ولو ان سائلاً سألني في تلك الليلة : « الى أين ؟ » لما استطعت أن أجيبه بغير الصمت . أو لعاني ، دفعاً لفضوله ، كنت اجيبه بقولي : « اني افتش عن الصباح . »

وأوشك الليل ان يفنى . وإذا بقبضة من الأشعة المؤنسة تخترق الضباب وتكشح العتمة من أمام عينيّ وقدميّ . فأبصر

شبحاً يسير نحوي بخطى وئيدة وفي يده مصباح . وكنت ذلك الشبح يا أرقش .

حييتك فرددت التحية بأحسن منها . وشعرتُ في الحال كأنك مني وأنا منك . وما كنتُ على خطإ في ما شعرت . فقد كنتَ مثلي تفتش في ذلك الليل عن الصباح . وكنتَ ، ومصباحك في يدك ، بلا مأوى . وكان لي مأوى ولا مصباح . فوافقتني على الجمع ما بين مصباحك ومأواي . ومعاً ذهبنا الى غرفتي الوديعة التي كانت باردةً فدفئت ، وعابسةً فابتسمت ، وضيّقةً فأصبحت أوسع من الفضاء .

وتوالت الأيام والليالي ، وأنت في فكري وقلبي وخيالي ، تحدثني بما لم يحدثني بمثله سواك ، وتقص عليّ ما لم يقصه عليّ قبل لسانك لسان . حتى أخذتني نشوة من روحك فرحت أدوّن ثم انشر بعض ما عرفته منك وعنك .

كان ذلك في أواخر عام ١٩١٧ . وفي أوائل العام الذي تلاه دعاني داعي الحرب . وما كان اشد كرهك وكرهي له ! ولكنّ دعوته ما كانت تقبل الرد . فأرغمت على الامتثال لها . وهكذا سلختني الحرب عن قلمي وأوراقي وعن مذكراتك ، ولم أكن دوّنت ونشرت منها غير اليسير اليسير .

سلختني الحرب عن مذكراتك . ولكنها ما سلختني عنك .

فقد رافقتني في اشد الساعات سواداً ، على الجبهة وخلفها . رافقتني ثلاثة عشر شهراً جندياً بسيطاً يحمل على كتفيه آلة الحرب الساحقة بأثقالها الجهنمية ، ويتحمل فكره وقلبه الفتيّان غطرسة الرؤساء وانسحاق المرؤوسين . فكنت لي خير السند ونعم الرفيق .

عدنا من الحرب ، ولكنّ نشوتي الاولى بروحك ما عادت اليّ . فما عاد قلمي الى مذكراتك . ومرّت من السنين ثلاثة عقود – وما اسرع ما مرّت ! وظنّ الناس اني نسيتك . فراح البعض يذكّرني بك ويلحّ عليّ في نشر مذكراتك حتى النهاية . وما كان لهم ان يعرفوا ان ما بيني وبينك أقوى من السنين وأبقى من الأرض . ولا كان لهم ان يعرفوا مقدار حبي لك والتصاقك بي . وانه لمن الخير لي ولك ان يجهل الناس مقامك عندي ومقامي عندك .

ولكنني حسبت نشر مذكراتك بكاملها ديناً لك في عنقي . مع العلم انك ما كتبتها للنشر ، وانك ما أدنتني لتستوفي . وها أنا أمسح قلمي منها ، وأطلقها في سبيلها . اما انت فلا أمسح منك قلبي ، ولا أطلقك من ضميري . ولو أنا شئت ذلك لما استطعت . غير اني ما شئته ولن أشاءه .

واني لأعلم ، مثلما تعلم ، ان ما دونته من مذكراتك ما

كان غير نزّ من ينابيع دفّاقة تفجرت في أعماق وجدانك ، ولا كان اكثر من اصداء خافتة لأشواق روحك العامر بالرؤى.

وما العمل ، والأشواق والرؤى لا بدّ لها من ترجمان ، والترجمان لا بد له من قلم أو من لسان ؟

والسلام عليك ، أينما كنت ، وكيفما كنت .

«فاغفر ولا تستغفر .»

بسكنتا – لبنان في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٤٩

ميخائيل نعيمه

